رواية

الفتى الطايش

أدبية غرامية وعظية

﴿ بقلم ﴾

﴿ حضرة حسين افندي عفيفي ﴾

﴿ طبعت ﴾

(على نفقة منصور عبد المتعال الكتبي)

« بشارع محمد علي بمصر »

﴿ طبعت بالمطبعة المصرية الوحيدة بشارع درب الجماميز بمصر ﴾

في شهر ربيع الاول سنة ١٣٢١ هجرية



رواية

الفتى الطايش

أدبية غرامية وعظية

بقلم

حضرة حسين افندي عفيفي

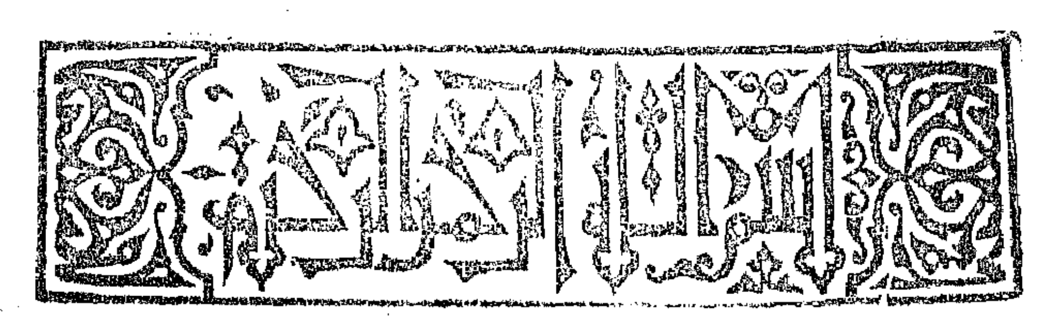
طبعت

(على نفقة منصور عبد المتعال الكتبي)

« بشارع محمد علي بمصر »

طبعت بالمطبعة المصرية الوحيدة بشارع درب الجماميز بمصر

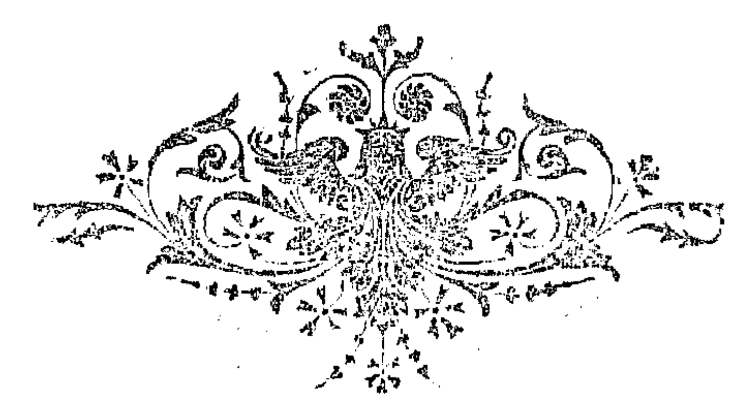
في شهر ربيع الاول سنة ١٣٢١ هجرية



احمدك يا من قصصت على نبيك أحسن القصص . وكشفت عن عبادك بالصلاة على حبيبك عوامل الغصص (أما بعد) فاني جئت بهذه الرواية وان كنت لست من رجال هذا المجال ولا من فرسان هذا الميدان ولكنني تطفلت على ابواب الادباء وتشبهت بأعمالهم عملا بقول من قال

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   أن التشبه بالرجال فلاح

ولقد استعصى القلم عن التجوال على صفحات القرطاس مهابة واجلالا لما كابدته وعانيته اثناء انشائها ولكنني توكأت على عصا الاقدام سائرا على صراط الجد مرتديا رداء الكد راجياً من القراء الكرام أن يغضوا الطرف اذا وقعو على هفوة أو ذلة وان يعيروني صفحاً وعفوا فانهما كما لايخفى من شيم الكرام



﴿ الفصل الاول ﴾

في سنة ١٨٤٣ في شهر ديسمبر الذي هو احسن شهر في احسن فصل من فصول السنة يرى المشاهد عربة واقفة والى جانبها فتى بربري أمام محطة مصر كأنها كانت تنتظر حضور أحد من بعض الجهات ويؤكد ذلك للمشاهد أنه حينما أتى قطر الاكسبريس الآتي من الاسكندرية نزل منه شاب في الثامنة عشر من عمره تلوح عليه مخايل الشرف وتظهر على محياه الجميل مظاهر النعم لتأنقه في ملابسه الفاخرة بشوش الوجه قد كتبت يد القدرة على جبينه (ياعيون انظري اليه ويا قلوب ميلي لحبه ويانساء افتتني به وامتثلي لفخاخ غرامه ويا اخلاقه الحسنة أأسرى بدماثتك القلوب) وبالاختصار فقد خلقه الله تعالى كاملا ولكن من الاسف فان نحافة جسمه ونحول اعضائه يدلان على أنه حليفاً للافكار اليف ... الأرق في الليل والنهار

خرج ذلك الشاب من باب المحطة فقابله الفتى البربري المتقدم ذكره بكل خضوع واحترام فحياه وجلس في العربة وجلس الفتى بجانب السائق فسارت العربة تنهب الارض نهباً وظلت سائرة مدة وجيزة ووقفت أمام أحد الفنادق فنزل الفتى البربري وأعطا السائق أجرته ودخل الفندق وصعد الى الدور الاعلى وهنالك دخل حجرة مزخرفة والشاب في أثره

فأخذ الشاب يخلع ملابسه وجعل يسأل الفتى قائلا

— يظهر ان هواء هذه الجهة جميل حتى اخترتها لنا يامحبوب

— اي نعم هواؤها جميل ياسيدي

— وهل ذهبت الى المنزل كما امرتك

— ذهبت ياسيدي

ـ وهل انبأتهم بقدومنا

ـ اني لم أجدهم يامولاي

ـ كيف لم تجدهم

ـ انهم ذهبوا الى الا بعادية

ـ يالها من ليلة ما ابشعها ـ هل ذهبو زائرين

ـ بل مقيمين

فلم يجبه الشاب بل تنهد من صميم فؤاده تنهدا حارا كاد أن يحرق ما أمامه فقال له محبوب هون عليك يامولاي فما الامر الا سهل فأجابه بقوله

ـ كيف يكون سهلا وقد ذهب الذي اتيت من أجله من بلاد بعيدة ولا أجد الراحة الا برؤيته وأني أجد رؤيته وهو في أرض لانعرفها ·· فقد غدت من ·· أصعب الاشياء بل مستحيلا

ـ اني يامولاي لا اعد شيئاً مستحيلاولاصعباً بل كل شيءدون الخوارق سهلا

ـ وماذا افعل يامحبوب

ـ ان الذهاب اليهم من أقرب الاشياء

ـ وكيف نذهب اليهم ونحن لا نعرف هذه البلاد ولم نجزها ابدا

ـ ومم تخاف

ـ افعل ماتريد فها أنا طوع يديك

ـ تجهز للسفر باكرا

ـ أمرك يا سيدي

وعلى هذا تمت المحادثه بينهما ·ولما أزف وقت السفر ذهب محبوب ليأتي

بعربة يركبانها الي المحطة وترك الشاب يشتغل بلبس ملابسه . ولما أتى بها ركبا وأمرا السائق بسرعة المسير فسار ضاربا خيله ضربا موجعا مكنهم من الوصول في بعض لحظات فنزلا من العربة وأعطيا السائق أجرته وركبا قطارا توصلهم الى الجهة التي يريدان الوصول اليها

سار القطار ينهب الارض نهباً قاطعاً المراحل والمحطات بسرعة غريبة . هذا والمسافران جالسان على أحر من الجمر منتظران وصولها بفروغ الصبر يتحادثان بأحاديث لا تستحق الذكر هنا الا أن الشاب رأى مع خادمه محبوب شنطة فاستنكرها وسأله عنها وما فيها فقال له ستعلم ذلك حين الاحتياج لها فسكت

وما زال القطار سائرا حتى المساء وبعد ذلك وقف في محطة يجتمع فيها المسافرون وباعة الفواكه ينادون على بضائعهم ويصفونها بالجودة . فلم يلتفتا لشيء من هذا واستأجرا حمارين ركباهما وسارا

وكانت تلك الليلة شديدة البرد كثيرة المطر لايرى الانسان فيها كفه والريح تكاد تقتلع الاشجار من شدتها

فلم يستطيعا أن يسيرا راكبان فنزلا عن الحمارين وأعطيا صاحبها الأجر وسارا ساعتين على الأقدام يسقطان هنا ويكبوان هاهنا فانتركهما يخبطان خبط عشواء في هاته الليلة الدهماء ونعلم القارىء عن ترجمة ذلك الشاب

﴿ الفصل الثاني ﴾

هو من عائلة شريفة وكان وحيد والديه وقد رباه والده في المدارس وصرف عليه مصاريف جمة فكان يتقدم تقدماً غريباً حتى فاق جميع التلامذة في العلوم

كل هذا وهو صغيراً لم يبلغ الثانية عشر من عمره ولم يلبث حتى حاز شهادة حسنة من رؤساء مدرسته ولكن من الأسف لم يبلغ السابعة عشر من عمره حتى استهوته شياطين الشبان واستغواه خبثاء السفلة الذين هم في بحار الهوى سابحين وفي بيداء الغواية تائهين

وكان وطنهم الذي نشأت فيه عائلته هو باريس عاصمة فرنسا وكان والده واسع الثروة ذائع الصيت من ذوي الجاه في الدولة الفرنساوية . ولكن من الأسف قد عاجلته المنون بضربة قضت عليه وكان قبل موته أودع ابنه عند أخ له شفوق فلم يسيء ابن أخيه ولم يردعه عن طيشه واتباع هواه بل كان ينصحه وينهاه عن فعاله الخبيثة وماذا يفعل النصح والنهي مع فتى وجد أموالاً كثيرة وشياطيناً مردة يحسنون له طريق الشهوات وارتكاب المحرمات ولم يجد أمامه من يغلق باب هذا الطريق المؤدي الى الخراب ونفاد الأموال الوافرة وتكون نتيجته أن يصبح محاطاً بجنود الفاقه يقلب أكف الفقر لا يجد من يرثي له ولا يرق لحالته ولا غرو

فالناس أعداء لكل مدقع   صفر اليدين واخوة للمكثر

عفوا أيها القارئ وصفحاً فاني قد أطلت في موضوع ليس لنا به علاقه فلنرجع الى ترجمة صاحبنا الشاب الذي قد فقد عمه الشفوق على أثر علة ألزمته الفراش ومنه الى القبر

فحزن الشاب عليه حزناً شديداً وأخيراً تعزى عنه باللذات وتسلى عنه باقتراف المحرمات ثم اتخذ له رجلاً عهد اليه مباشرة أملاكه وما ورثه من أملاك عمه الشاسعة وقد أهداه أحد أصحابه (بمحبوب) لأن له معرفة كبري بأخبار الحسان وله اليد الطولى في الاعانة على ارتكاب المعاصي

ولم يزل الشاب يخرج كل ليلة الى محلات الرقص وحانات الفسق ويتعرف بالنساء المومسات ويغازل هذه ويشاغل تلك حتى مهر وتفنن في هذا السير المرذول

وفي ليلة من الليالي ذهب الشاب أو بالحرى هنري محل رقص كان يتردد عليه على حسب عادته فوجد غادة لم يرها قبل في ذلك المحل فسأل عنها فأخبروه أنها (رقاصة) جديدة وقد ذهل هنري من جمالها ورقتها التي تسلب بها عقول ذوي العقول وتعلقت بها قلوب الشبان الطائشين الذين هم من أمثال... لت تلك الغادة ترسل الى قلبه رسل الغرام وترشقه بسهام عينيها حتى... هواها فلما رأته كذلك مرت من أمامه فرأته يخجل القمر ويفضح الشمس في وقت الظهر ولكن لم تخاطبه وتركته جامداً كأنه تمثال منصوب فعلمت من دهشته أنه قد صار غريقاً في بحار حبها خاضعاً لسلطان عشقها وأخذت في تمثيل دورها المهم حتى انقضت الليلة وتركته وذهبت الى محلها فقام يتعثر في أذيال الاسف لكونه لم يحظ بالتفاتها اليه ولعدم علمه هل هي راضية عنه أم ساخطة عليه

وقضى نهاره كأنه على لظى من شدة اشتياقه لتلك التي أخذت قلبه من الليلة الماضية وما أتى الليل الا وهو جالس بجانب صاحبته المعلومة وسألها قبلة يطفئ بها لهيب قلبه المجروح فما كانت تجيبه بل جعلت تماطله وتحاوله

وتعده وتعمزه بألحاظها الخمرية حتى تركته في نشوة منها ومن ألفاظها الرقيقة الدرية

ولم يزل على هاته الحالة مدة كبيرة وهو يذهب وجيبه مترع بالجنيهات ويعود ولسان حاله ينادي (وعش خاليا)

فتململ الفتى وعلم أنه ان صمم على هاته الحالة لا بد أن تسلب أمواله ولا ينال منها أقل حظ . فأصر على تنفيذ مرغوبه بالرغم أو بالرضاء بعد أن يحتال عليها ويخرجها من المحل ولم يعلم ماخبأه له القضاء في تلك الليلة الليلاء

وفي المساء ذهب على مألوف عادته الى المحل وقد أصر في ضميره وأكد أنه لا بد أن يفوز بأمنيته في تلك الليلة . ثم انه أخذ يبث لها أحاديث الغرام وأخبرها أنه واله مستهام فأظهرت له الرضا والحب ولما انقضت الليلة خرجا الاثنين من المحل وركبا عربة أوصلتها الى البيت وما أدراك ما البيت هو سجن لهنري يقاسي فيه الذل مدة غير قصيرة كما سيعلم القارئ فيما بعد

وصعدت الى حجرتها وأجلسته على سرير كان قائماً فيها وأرادت أن تتخلص منه بحيلة لأنها ليس لها حظ في . . . . . بل حظها الأكبر هو سلب الجنيهات . فأخبرته أنها تريد أن تقضي حاجة سنحت لها فأذن لها فذهبت والشاب ينتظر حضورها بفروغ الصبر فلم تحضر بعد ساعة ولا بعد ساعتين فقام ليسأل أحد عليها فلم يجد أحدا ووجد باب البيت مغلقا فصعد الى آخر الدرج ظاناً ان يكون السطح مكشوفا فيكلم الجيران لكي يفتحوا له الباب فلسوء حظه لم يجد السطح مكشوفا فعاد الى الحجرة وهو يعض بنان الندم متذمراً من شدة الغيظ من محبوبته التي أمست أعدى أعدائه الالداء وجعل يبحث في البيت على جهة يفر منها أو حيلة يتخلص بها فلم يجد فصبر على أحكام

القضاء التي لا مفر منها ولا مهرب ولام نفسه على طيشه وعدم طاعته امه الذي طالما نصحه وحذره من مثل هذه الاحوال ولكن ماذا ينفع ويجدي الاسف وقد سبق السيف العذل

ومكث في ذاك السجن الاختياري يومين وهو لم يأكل الا بعض لقيمات جافة وجدها موضوعة في الحجرة ولم يشرب الا فضلة من ماء وجدها في اناء مع اللقيمات الجافه

وصار يضرب أخماساً لأسداس ويتفكر في سبب هذا السجن الانفرادي ويبحث في خزائن فكره على عداوة أو نفور سبق بينه وبين أحد فيكون نصب له هذا الشرك ودبر له هذه المكيدة فلم يجد

ولما جاء الليل نام من شدة التعب الذي عاناه طول ذاك اليوم في البحث والتنقيب على الفرار. واستيقظ في اليوم الثاني مؤملا أن يسبب الله له الخلاص من هذا الشرك راجياً أن يعجل له الفرج من هاته الشدة ثم أنه اجتهد في البحث أيضاً كسابق عادته ولم يدع مكاناً الا وفحصه كما يفحص الطبيب جثة العليل مجتهداً ليعرف أسباب المرض وأسباب الشفاء

وكذلك هنري كان جل مرغوبه الحصول على بعض لقيمات يقتات بها مثل الامس اذ قد قطع الامل من جهة الخلاص

فذهب تعبه وبحثه أدراج الرياح ولم يجده ذلك الا تعباً ونصباً فصبر على أحكام القدر واستسلم وخضع لما حكم عليه الله به وقدر

فلندعه في سجنه ونعود الى خادمه محبوب



﴿ الفصل الثالث ﴾

انه لما خرج سيده ولم يرجع ظن انه يكون قد شرب كثيرا من الخمر فبات في احدى اللوكندات لتعذر الرجوع عليه في تلك الحالة ، ولكنه لما لم يعد في الليلة الثانية اخذه الفكر واحتاطت به الهواجس من كل جانب خوفاً على سيده من ان تمد اليه يد شديدة ، وانه لجدير بان تصدر منه هذه الحالات لانه خادم مخلص لسيده في الشدة والرخاء فخرج يتجسس عليه في بيوت اصحابه واصدقائه فلم يجده عند احدهم فذهب الى محلات الرقص التي يتردد عليها سيده وسأل البوليس فأخبره احدهم اي بواب المرقص الذى نصب فيه الشرك لسيده انه رآه راكباً معها في عربة من مدة اربع ليال فسأله بهذه الاسئلة

ـ الم تعرف الى اين ذهب معها

ـ كلا ولكني أعرف بيتها

ـ في اي شارع هو

ـ اذا اردت أن تعرفه فاصبر لحين حضور ولدي فأسلمه اشغالي واذهب معك اليه

ـ وفي اي وقت يحضر ولدك

ـ الساعة ١٢ بعد الظهر

فنظر محبوب الى الساعة فوجدها تسعة صباحاً فصبر على مضض الانتظار يعلل آماله بنجاح طلبه

ولما مضت تلك الساعات التي قضاها محبوب متململا بين ذهاب وجيئة متفكرا في حل رموز هذا اللغز الغامض وفيما هو كذلك اذ تذكر صاحباً له

يبيع البوزة يعرف سيده معرفة جيدة فحدثته نفسه بان يذهب اليه ويسأله عنه عسى ان يكون عنده علم عن خبره فيرشده اليه فقال للبواب انتظرني ريثما أزور احد اصدقائي

وذهب الى صاحبه المذكور الذي كان حانوته قريباً من محل الرقص فقابله صاحبه ببشر وبشاشة هما احرى وأجدر بان يصدرا من ذلك الرجل الذي جل كسبه من جيب صاحبنا الشاب وخادمه محبوب لانه كان محبوبا حبا مفرطاً لاخلاصه وولائه له وكان محبوب مشغوفاً بشرب (البوزه) ولا بدع فلا يخفى على القارىء ما للبوزة من المكانة عند العبيد وشغفهم بها فكان الشاب يمنح ذلك الرجل بالعطايا الفادحة اكراماً وارضاء لخادمه المخلص

ولما حدثه بغيبة سيده وسأله عما اذا كان رآه او يعلم عنه شيئاً تبسم وقال له طمن خاطرك فانا عالم اين هو وسأحدثك عنه وعن غيبته ولكن في غير هذا المكان • فهلم بنا الى البيت لاعلمك عن سر الحديث فاجابه

ـ ويلاه في العبارة سر

بلى سر صريح

ـ لقد اشغلت بالي عليه فبحقك أسرع

فاغلق الرجل باب حانوته وسار ومحبوب يتبعه الى ان وصلا الى زقاق ضيق لا يقطنه الا بعض فقراء سكنوا بعض منازله

فسارا فيه بضعة دقائق واوقف الرجل محبوباً امام بيت صغير يحتوي على طبقتين كل طبقة منها مؤلفة من حجرتين فطرق الرجل بابه طرقات متواليات فنظرت امرأة من نافذة احدى الحجر المطلة على الزقاق فقال لها

الرجل افتحي فما قد اتينا فمكثت بعض دقائق قضتها في سير امرأة عجوز بلغت ارذل العمر

هذا ومحبوب يعاني آلام الانتظار فانه كان يود لو وصل من حانوت صاحبه الى المكان الذي يطلع فيه على سر سيده الذي يهمه كثيرا في لحظة واحدة

فلما فتحت المرأة لهم الباب دخل الرجل ومحبوب مقتف أثره ثم سار بعض خطوات ودخل الرجل حجرة ضيقة فيها بعض اثاث بسيط قد غيرت زهوته يد الزمن القاهر الذي تقادم عليه وهو في موضعه لم يتغير ثم انه جلس جاثياً على ركبتيه واجلس محبوباً امامه بعد ان اغلق باب الحجرة ثم قال

ـ اعلم ان عائلة هنري هي من أعظم العائلات الفرنساوية واغناها فان املاكهم لا تحصى ولا تعد وذلك ليس من زمن قريب بل هو من عدة قرون مضت وأملاكهم لم تنقضي ولم تعبث بها يد الدهر فلذا قد تجمعت بعض الشياطين الباريسيين والفوا منهم جمعية لتسلب أموالهم وتفنى رجالهم وأعظم مؤسس للبغض في قلوب اولئك الشياطين هو محض الحسد بل الظلم الغريزي

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ولم يزالوا ينصبون لرجال تلك العائلة ورؤسائها شرائك الحيل والخداع لينالوا امنيتهم ويفوزون ببغيتهم فذهب كل ذلك هباء منثورا ... ولم يعقبهم الا حسرة في قلوبهم . ولكن لسوء حظ سيدك ونفاذ المقادير قد صوبت صروف الليالي سهام الموت نحو عمه ووالده وسقتهم كؤوس

الحمام صرفاً

فكان ذلك بعض توطيد لدعائم الرجاء في قلوب أولئك الشياطين الخبثاء وعضد مشروعهم طيش مولاك وميله الى اللذات . فنصبت له الشرك الذي اوقعته فيه في محل الرقص الذي كان يذهب اليه بتلك الغادة الفتانه سلبت لبه لاول نظرة واوقعته في فخ مكائدها بصفتها رقاصة في المحل

وهو الآن موجود في بيت بل سجن منيع اعدته له تلك الجمعية يقاسي فيه انواع العذاب والذل . وسترسل له من يخوفه ويتوعده ويهدده ويحتال عليه بمثل تلك الالاعيب حتى يكتب لهم صك بنصف امواله ... وسينفذ فيه ذلك الحكم ان لم يسبب الله له اسباب الخلاص في هاته الليلة واظنك تتوق لمعرفة اسباب معرفتي تلك الامور فاسمع وانصت واعرني اذنك ولبك فانه سر عجيب وامر مطرب غريب

اني منذ ثلاث ليال كنت جالساً امام حانوتي واذا بي رأيت سيدك راكباً مع المرأة المذكورة في عربة وهي مسرعة بهما جدا فآنست في نفسي توقا الى معرفة ماهم عازمين عليه . ففعلت وقمت الى حانوتي فاغلقته بسرعة واخذت اعدو وراء العربة حتى لحقت بها وتعلقت بمؤخرها بحيث انهم لم يروني وما زالت العربة سائرة بنا حتى وقفت امام بيت صغير ثم فتحت الباب بمفتاح كان معها وصعدت الدرج وهو يتبعها فاختفت عن نظري لانسدال ستر الظلام داخل البيت . فدفعني حب استطلاع امرهم على الانتظار الى ان احظي بمرغوبي لاني في ذاك الوقت قد تولدت في فكري بعض افكار شغلت بالي نحو امر سيدك الذي اودان افتديه بروحي قياماً بواجبه ومقابلة

ابعض فضله

وما مرت بعض لحظات الا وتركته تلك المرأة المحتالة بسرعة وخرجت وحدها واغلقت الباب خلفها . فتحققت حينئذ بعض افكاري التي سبقت وعلمت انها مكيدة نصبت له ولكني لم اعلم من نصبها له ولم ذلك ثم مكثت هذه المرأة سائرة حتى صعدت العربة وخاطبت الحوذي . بعض كلمات من ملخصها ان يعمل غاية جهده في الاسراع

وكان هذا الحوذي ليس بحوذي بل هو أحد اعضاء الجمعية المذكورة قد عين من لدنها لاداء مهمته . والعربة التي يتزيا بصفة سائق لها هي لرجل فقير يقتات مما يكتسبه من اجرتها الزهيده

فلما ارادت الجمعية الاحتيال على مولاك انتدبت هذا الرجل الماهر في فنون الاحتيال والخداع لاحضار العربة التي يركبونها حال تأدية المأمورية المنوطه به هو والمرأة السابق ذكرها

فتركهم في بيتهم يدبرون شؤونهم وذهب يبحث على عربة فوجد الرجل الحوذي المذكور واقف بعربته فاتفق معه على ان يؤجر له عربته بمبلغ وافر بشرط ان يبقى هو في مكانه ويأخذ هو العربة لحينما يقضي مأموريته ويعود بها اليه . فقبل الرجل الشروط بعد ان اخذ منه رهنها خاتم ... يساوي اضعاف ثمن العربة

ثم ان الرجل صاحب محبوب عاد الى حديثه الاول فقال ..

ان العربة ظلت سائرة وانا متعلق بها ايضاً وكان الظلام سائدا .. والطريق خالية ليس بها نافخ نار ولاديار . ولم تزل هكذا وهي تخرج من شارع وتدخل في آخر ومن زقاق لسواه والظلام سائد كما هو .. والسكون

قد نشر في ذلك الوقت اعلامه بحيث ان الانسان لا يسمع سوى وقع حوافر الخيل العربة وصوت عجلها على اديم الارض المتجلد وبعد ذلك ابتدأت تسير في زقاق ضيق يتعذر على الانسان فيه رؤية كفه حتى خرجت منه الى حيث لا اعرف ما اسمه لاني لم اسلكه قط وسارت فيه بضعة دقائق

كل هذا وهم ساكتان لا ينطقان بشيء ما كأنهما ماجان . ولكنهما لما وصلا الى وسط الجبل قالت المرأة

- هاقد وصلنا ياسيو روادان

- أي نعم ياعزيزتي .

ولا تنسى اننا عدنا فائزين بنجاح مأموريتنا

- بهمتك ياعزيزتي

عفوا ياسيدي فما انا الا تلميذتك التي أفرغت جهدك في تربيتها

- دعينا من هذا الكلام الآن ياسيدتي فهاقد وصلنا

اظن ان الجمعيه تسر جدا من اتمام اعمالنا بأوفى نظام

- بلا ريب

وما اتما محادثتهما هذه الا وقد اوقف روادان العربة امام غابة لا يكاد الانسان يتحققها من تجمد الاعشاب على بابها ولذا لا ينظرها الا الذي يعرفها معرفة تامة

ثم انهما نزلا من العربة فعقل روادان الخيل لكيلا يتمكنا من السير ووقف امام باب تلك الغابة ومد يده الى نافذة صغيرة بجانبه وحرك شيئاً لم يمكنني الظلام من نظره فلم يكن الا ان فتح باب الغابة ودخلا الاثنين وانا مختف خلف العربة وقد اخذ التعجب مني اي مأخذ من فعل اولئك .. الشياطين

فلما اختفيا عن نظري داخل الغابة حذوت حذو الباب وانصت لكي اسمع شيئاً يفيدني ، فلم اسمع الا جلبة وهرج ولكن بعد ذلك سمعت صوت رجلا يخاطبهم بهذا الكلام

ـ ماذا فعلتما اجيباني

فاجابه روداك :

ـ فعلنا كل خير يفيدنا

ـ هل ادخلتماه البيت

ـ نعم وتركناه يعاني اهوال الشقاء

ـ دعه يعاني ما يعاني

ـ وماذا تريد ان تفعل معه بعد

ـ نتركه على حالته في البيت مدة أربعة أيام وبعد ذلك نذهب اليه ونهدده ونتوعده حتى يتبرع للجمعية بنصف ثروته بالرغم او بالرضاء

ـ وما معنى الرغم هنا

ـ هو انه يظل في سجنه يرى العذاب الواناً حتى يرضى بان يعطي الجمعية ثلثا ثروته نظرا لابائه

ولم يزالوا يتحدثون بمثل هذا الحديث الذي علمت منه مقتضاه ما اعلمتك عنه الى ان لاحت انوار الصباح ، فعدت على اثري خوفاً من ان ينظروني فأرى منهم ما لا يسرني انا الآخر وكنت تارة أعدو وتارة أمشي الهوينا

وقد كنت عازم على اخبارك ان لم تأتني فانتظر هاهنا الى الساعة التاسعة مساء ونذهب الى البيت المسجون فيه مولاك ونخلصه والا فابد رأيك فيما تقوله

ثم انه اقتصر في بيته ولم يخرج منه مدة ثلاثة أيام الا للاشغال اللازمة ولكن من الاسف سئم الاعتكاف وعيل صبره الذي كان أعده في سجنه السابق

وفي اليوم الرابع وردت له ورقة دعوة من أحد اصدقائه الاعزاء فلم يسعه رفضها خوفاً من ان تنقطع حبال الصداقة والمودة بينهما وكانت تلك الدعوة مرهما شافياً صادف جروح ملاله

فلما ان أزفت ساعة الرواح الى محل صاحبه اجابة لطلبه عجل بالرواح ولما وصل اليه دخل من بابه فوجد بهوا واسعاً فرش بالرمل الذهبي الجميل وصفت فيه الوسائد وبجانب البهو حديقة رسمت بشكل هندسي بديع وفي وسطها فسقية ماشت بالماء الرائق الصافي وحولها الرياحين والازهار الزكية من نرجس يجلب الانظار وورد يروح الافكار بجماله فترى هذه الزهرة حمراء فاقعة وتلك بيضاء ناصعة بل ترى منظرا بهيجاً يهيج الاشجان وينفي الاحزان ويشوق العشاق لاوقات التلاق كيف لا وتلك المشيقة قد حذت حذوهم فنثرت ورد دموعها و بثت الى الناظرين لاعج شوقها وولوعها وكان النسيم مستهزأ بروائح الازهار فينثرها على وجوه الجالسين

هذا وقد اخذت العربات تأتي بل الهالات وفيها البدور بل السيدات

حور تميس كغزلان النقا سفرت عن بهجة لو رآها الاوليا علقوا

كل هذا والشاب لا يصرف نظره الى هذه المشاهد بل مكث على التفرس في هذا المنظر الجميل . وفيما هو كذلك واذا بشيء استلفت نظره بل أخذ فؤاده وافقده رشده وصوابه الا وهي عربة اتت تقل امرأتين احداهن فتاة في السابعة عشرة من عمرها والاخرى امرأة كاملة تناهز الثلاثين ولكنها ظاهرة على

محياها بقية من جمال وأما الثانية فانها قد تربعت على عرش المحاسن والجمال فهي تفتن بل ترشق بسهام من نبال عينيها وقسي حاجبيها قلوب الناظرين

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ماتفعل الخمر

قد ركبتا تحت جبين كانه خلق من فضة خالصه وقد اسدلت عليه قـ-
من شعرها فصار شيء جميل

فكأنه فيه نهار طالع وكأنه ليل عليه مظلم

وخدين كأنهما وردتين زاهرتين

ذات خدين ناعمين ضنينين بما فيهما من التفاح وثغر كأنه المرجان قد ركبت فيه الثنايا التي كانها الدر المنظوم

وثغر كلمح البرق حسن بريقه يشفي غليل المستهام بريقه

وبالاختصار فانها حوت كل صفات الحسن وملكت أزمة الجمال والكمال

كانها خلقت من ماء لؤلؤه في كل جارحة من حسنها قمر

ثم نزلنا ومشينا الهوينا كمشي الخيل في الوحل فترى الفتاة المذكورة (غادة روايتنا) تميل الى جهة اليمين فتترك الجالسين في تلك الجهة ثملين من خمرة حبها ثم تميل الى اليسار فتغادر الايسرين يتوارون من السهام التي ارسلتها لتمهد قلوبهم لمحبتها

هذا والفتى سابح في بحار الهوى تائه في فيافي عشق هاته الفتاة الجميلة بل الدرة اليتيمة

فتركته كأنه تمثال لانه قد جمد الدم في عروقه ودبت عقارب الحب في بدنه فصار ينظر اليها بعين ملؤها الحنو ومرت من امامهم .. بعد ان حيتهم وحيت صاحب الوليمة تحية خصوصية ثم تركتهم ودخلت الى داخل الدار

فتشوق الشاب لمعرفتها أي تلك الغادة التي اخذت لبه وسلبت رشده فخرج الى خارج البيت وأمر محبوب بأن يذهب الى العربة التي كانتا راكبتان فيها ويسأل سائقها عن هاتين الغادتين ومن اين هما ومن اي عائلة وهل الفتاة متزوجة ام لا فذهب اليه وسأله عنهما فاخبره أنهما اختا الشاب صاحب الحفلة وانهما قاطنتين منزلا لهما خارج المدينة وان المرأة الكبيرة متزوجة والثانية اي الفتاة لم تتزوج فعاد محبوب واخبر سيده بذلك فسر سرورا زائدا لان الفتى صاحب الحفلة من اخص اصدقائه . وجل سروره لخلو الفتاة من الزواج لانه كان حينما رآها تمنى لو كان قرينها فعزم حينئذ على ان يخطبها من اخيها ويتخذها له حليلة

ثم ان الليلة تمت على هذا وذهب كل المدعوين الى محلاتهم ولم يبق الا هنري فلما راى ذلك استأذن من صديقه صاحب الحفلة في الرواح فأذن له فذهب الى بيته ونام الى الصباح متفكرا في تلك الحبيبة معللا نفسه بزواجها لانه كان احبها حباً شديدا تمكنه من قلبه وجوارحه وهكذا عوائد المحبين يصور لهم الامل القاسي والداني من الاحوال ... ويريهم كل بعيد اقرب من حبل الوريد فلا يزالون يعللون نفوسهم بالوصال ويقطعون علائق اليأس من قلوبهم حتى ان هجر احدهم محبوبه او نفر منه يوطد دعائم الرجاء في قلبه ويقول في نفسه انه وان هجر في اليوم لا بد ان يغمرني بصوب الرضا في الغد . وما ضيق الدنيا والعيش امامه ان لم يفسحا له الامل

ثم انه مابرح كذلك حتى استفاق على صوت قرع باب حجرته والطارق يناديه قائلا

ـ افق ياسيدي فنحن في الساعة العاشرة صباحاً الآن والست أوجينيا

في الانتظار على مائدة الفطور

- صبرا الى ان البس ملابسي . ومن انت

- انا جهان

- انعم واكرم بك من جهان

- الى م تسخر بي وتهزء بي ياسيدي

- لم اسخر بك ولكن خصالك الحميدة تجبرني على تعظيمك وتبجيلك

- فلأصمت

- اولا تصمت سيان . هل يوجد احد مع سيدتك الآن

- كلا

ولم تتم تلك المحادثة الا وقد اتم هنري لبس ملابسه فبادر الى انتهاز فرصة خلو الجو له امام والدته ليباحثها في شأن زواجه بتلك الفتاة . وفي اقل من لحظة كان بين يديها جالساً على مائدة الفطور فبدأته بالكلام قائلة

- لم تأخرت في النوم ياهنري

- من كثرة السهر في الليلة الماضية ياوالدتي

- واين مضيتها

- عند احد اصدقائي

- في زيارة أم دعوه

- بل في دعوة لحفلة كان أقامها

- وهل لم تزل مدمن على الرواح الى محلات الرقص

- محلات الرقص . مدمن اني لم اذهب ابدا الى تلك المحلات

- تكذب

ماقلت الا الصدق

وأنا أقول تكذب

كلا لم اكذب بعض الكذب

ولكن كذبت اكثره

كما تشائين

ولم هذا النكران فان هذه عادة جميع الشبان من سابق الزمان ولم تزل النفس تجنح الى حالات السرور واني اعلم ان هذا داء يعتري النفس وهي في عنفوان الشباب وان ليس له علاج سوي الزواج

فنزلت هذه الكلمات على فوائده بردا وسلاما واهتزلها طربا فقال

— وانا اعلم ذلك ولكني لا أميل الى الزواج الا اذا وجدت زوجة توافقني من حيث الجمال والاخلاق لانها شريكتي في حياتي الي الممات

وأنا أيضا هذا جل مرغوبي

وهل لم تعثري على احد يوافق مرغوبنا

كلا ولكنني سأبحث

لاتتعبي نفسك فانا وجدت

أنت وجدت

بلى

أين

في باريس

من أي عائله وبنت من هي

من عائلة مونغرانسى وأما والدها فقد توفي منذ زمن واسمها بلانشن

ولها أخ يسمى فرنسو وهو الذي كنت في دعوته بالامس وامها على قيد الحياة وتسمى مدام مونموارنسي

— صيرله صديقي صيرله العزيزه مدام مونموارنسي ومتى تعرفت بابنها

— هو صديقي منذ مدة كبيره . وهل هي صديقتك حقيقة

— نعم صديقتي بل شقيقة روحي من ايام الصبا اللطيفة ايام كنا نذهب الي المدرسه ولما حجزنا عنها بقيت الصداقة مرتبطة بيننا ايضا حتى هاجرت عائلتها الى ايطاليا وحينئذ لم اعدأرها الي الآن ولم اسمع عنها خبرا قط وايضاً لم تتزوج وهي هنا ولم أر لها اولادا . وسأزورها اليوم واهنيها باولادها واسبر غور ابنتها لاعلم هل تصلح لك ام لا

ثم انهما لما أتما الاكل قامت العجوز الى ملابسها ولبستها وذهبت توا الي صديقتها وأما هنري فانه جلس امام مكتبه مكبا على مطالعة كتبه ودرس علومه والبحث على ورقة لتمضية الوقت سريعا لكيلا يمل الاقامة في البيت لانه يود ان ينظر أمه لتشنف سمعه باخبار حبيبته التي اضحى اسير حبها ولسان حاله يقول

عما بجفنيك من غنج ومن كحل — وما بقدك من لين ومن ميل
وما بثغرك من خمر ومن شهد — وما بعطفك من لطف ومن ملل
عندي زيارة طيف منك يا املي — احلى من الامن عند الخائف الوجل

ثم انه جعل يتجرع مرارة كؤس الانتظار بتكلف تارة يقرأ في كتبه وتارة ينظر من نافذة الحجرة وطورا يسير جيئة وذهابا في صالة البيت كانه موكل بذرعها حتى جنحت الشمس للغروب وهو يحاول الصبر متململا متفكرا في ان حبيبته ستصير له زوجة يوماً ما بعد . . . وفيما هو كذلك اذ سمع جلبة

في صالة البيت الثمينة فأسرع الى النافذة ونظر منها فبهت وتحير اذ رأى شيئاً ليس من المنتظر رأى عربة نزلت منها أمه تتبعها امرأة لا يعرفها وفي اثرهم التي سلبت لبه .... وتركته فريسة لآساد الحب حبيبته بلانش .

فاراد ان يلقي نفسه من النافذة تعجيلا للمثول بين يديها والتلذذ بالفاظها الشهية والتمتع بأنوار طلعتها الساطعة البهية ولكنه ثاب الى عقله وعاد الى الوراء بسرعة لا توصف وانحدر الى اسفل البيت انحدار السيل على الرابية ففي اقل من لحظة كان بين يديها فعرفته أمه بها فتقدم الى محبوبته ومد يده لها مصافحاً فتبسمت عن مثل حب الجمان ومدت يدها له فحينما تلامسا شعر بسرور كأنه تيار كهربائي سرى في جسمه واستقر في قلبه فجذبها بلطف ومهارة لا يشعر بها الا الخبير .....

ثم تقدم الى المرأة وسلم عليها فعرفته أمه بانها صبيربلة مدام دي مونمورانسي ثم صعدوا الى غرفة الاستقبال وجلسوا فالعجوزتان أخذتا تتحدثان على ذخائر حوادثهما الآنفة في خزائن ازمانها الماضية

وأما الآخران فجلسا تجاه بعضهما يختلسان النظر سابحان في بحار الفكر فاراد هنري مفاتحتها بالكلام فقال

ـ اظن ان هواء الخلاء في هذا الفصل اجمل من هنا يا مدموازيل بلانش

ـ بلى ولذا نحن الآن مقيمين فيه

ـ اي نعم أعرف ذلك وقد شاورت امي في ان نسكن فيه فلم تقبل خوفاً من امراض البرد

ـ فتبسمت الفتاة وأما هو فأخذ يحدثها بأحاديث هي عين الرقة موضحاً

لها مزيد سروره بشرف التعرف بها قائلا

- اني أعد نفسي من اسعد السعداء لتعرفي بك يا عزيزتي

فأجابته باجابة تشف عن كبير سرورها بمعرفته ايضاً ثم انه استشارها في غناء دور على البيانو معاً فاجابته وقام الاثنان الى البيانو وغنيا دور محاورة وغنت هي وحدها وهو ايضاً

ثم حضر الخادم ودعاهم الى مناولة الطعام فقاموا جميعاً حيث اكلوا وعاد العجوزتان الى مسامرتهما وأحاديثهما الخاويه واما هنري فانه أخذ بذراع حبيبته تحت ابطه وجعلا يتمشيان في الحديقة فأخذ هنري يختلس منها نظرات الغرام ويتزلف ويتلطف بها ويحدثها باحاديث تشف عن عظيم حبه لها فقابلته بالطف منها ففاتحها بغرامه اذ رآها تحبه كحبه لها . فأعلمته ان حبها له ضعف حبه فسر سرورا كبيرا واخذ يطارحها آيات الغرام وهي تبث له لواعج الهيام

ثم تعاهدا وتواثقا واخذا على بعضها اقساماً عظيمة على ان لا يقترنا الا ببعضها ولو حصل مها حصل الا انها اخذت تنثر درر دموعها على ورد خدودها وبكت بكاء مرا يدل على وجود عراقيل في طريق زواجها تحول بينها وبينه فسألها هنري عن سبب بكائها فزادت في النحيب فكرر عليها السؤال ثانياً فأجابته بلسان متلجلج وفؤاد مسلوب

- اعلم ان امي وأخي يريدان ان يزوجاني بابن عم لي مع اني لا أحبه ولا أوده بل افضل الموت على الاقتران به وطالما وبخاني وانباني على ذلك وقد ضربا لزواجي به موعدا عند حلوله يجبراني عليه . واني عند ما رأيتك أحببتك وصادف هواك قلبي خالياً فتمكن منه وضوعف بغضي لابن عمي ولذا

حينما تذكرته احتاطت بي الاحزان من كل جانب وهطلت دموعي وهكذا حالتي كلما أذكره

فنزلت هذه الكلمات على هنري نزول الصاعقة وقال

لعن الله الدهر انه لايدع الانسان تمر عليه ساعة سرور الا واعقبها كدر بأيام بل اعوام وأحزان لايرى الانسان فيها بعض الراحة

ماصفا الدهر لمرء نصف يوم واتمه

فقالت له بلانش لاتتعب نفسك ياحبيبي من اجلي وتسلى عني بغيري ودعني اقاسي همومي وحدي

ـ مهلا ياحبيبتي مهلا ولا تنطقي بمثل هذا الكلام فاني اقسم بشرفي وذمتي اني لو قطعت اربا اربا او اسلو بعض السلو لكان هذا اهون علي بل اهون من بعدي عنك ساعة

وكيف اسلو من اخذت فؤادي وملكت رقي وقيادي فوالله لا اتخلى ولا اصرف بعض النظر عن الاقتران بك مادام في رمق من الحياة . وخففي عنك ياحبيبتي هذا الحزن لئلا يضر بصحتك وكوني مطمئنة ولا تفكري بزواجه أبدا فسأجعل بينه وبين ذلك الزواج عقبات لا يتجاوزها الا وهو مضرج بدمائه ولا يكون بينه وبين الموت الا بعض خطوات

فمسحت بلانش دموعها اللؤلؤية التي تساقطت على خدودها الوردية بمنديل اخرجته من جيبها ثم قالت

وماذا تجدي تلك العقبات التي اشرت عنها ياهنري اذ قد اجيب على طلبه فأسأل الله ان يقيض لنا من لدنه فرجاً يغمرنا بصوب رحمته ويجعل لنا من هاته الشدة مخرجاً

ـ اعلمي اني سأقرن قولي بفعلي ولا بد ان يعقب تلك العقبات الفرج ونفوز بعدها بلذة الاقتران ونعيش سوية في سرور وحبور واما ما سأستعمله معه هو . اني اولا سأخطبك من اهلك فان أجابوا نلنا امنيتنا بلا تعب ولا كدر ولا نصب . وان لم يجيبوا نرحل تاركين لهم البلاد ومن عليها ونقيم في ارض لانجد فيها رقيب يكدر صفونا ولا حاسد يغير سرورنا بعد ان ابيع املاكي التي بهذه البلاد فينتج منها ما يكفينا مدة كبيرة

ثم صمتا مدة وجيزة راخيان لافكارهما العنان حتى افضى بهما ذلك الى ذهول يشبه السبات وما استفاقا الا على صوت مناد يناديهم فقاما وسارا الى البيت حيث وجدا العجوزتان واقفتان تنتظرانهما لان مدام مونمورانسي كانت عزمت على الرواح فأشارت عليها صاحبتها ووالدة هنري في المبيت فلم تقبل ثم انها ركبت هي وبلانش وودعتاها فعادا الى البيت وهنالك قصد هنري حجرته وتمدد على سريره وأما هي فذهبت الى حجرتها ايضاً ونامت

اما صاحبنا هنري فانه لم يستطع أن يقر به القرار حتى دارت به الافكار من كل جانب واخذت تتناوبه الوساوس والاوهام فقام بغأة وذهب تواً الى غرفة خادمه محبوب فايقظه من رقدته فسأله عن سبب تيقظه في تلك الساعة فقال له . اتبعني فانا ادرى بما اريده . فتبعه محبوب طاعة له ولم يزل سائرا وهو في اثره حتى خرجا من البيت فأغلقه خلفهما وسارا حذاء بعضهما فأخذ هنري يسرد لخادمه الامين سره الذي كان لا يخفى عنه شيئاً من اخباره مع حبيبته بلانش وما عزم على عمله من الاعمال في حق ابن عمها اي مزاحمته فوافقه محبوب على ذلك وسأله عن الجهة التي يقصدها في ذاك الوقت فاخبره انه مل الاقامة في البيت تلك الليلة من الارق الذي استولاه فاراد ان يقضيها

في محل ينفي عنه ذلك الارق

ثم سارا حتى وصلا الى محل قضيا ليلتهما فيه وعادا عند شروق الغزالة فدخل هنري غرفته وتمدد علي سريره فاستولى عليه النعاس من كثرة السهر الذي عاناه في تلك الليلة فلنتركه نائماً في حجرته

(الفصل الخامس)

صارت خيل العربة تعدو في الشوارع ولم يكتف السائق بعدوها بل اخذ يلهب اجسامها بسوطه فجعلت تنهب الارض نهبا بالجري

هذا وبلانش من شدة حزنها هطلت دموعها على وجنتيها الورديتين فالفتت جيدها الى خلفها لكيلا تفطن امها لبكائها وكلما تتذكر زواجها بابن عمها تزداد لوعتها ويكاد يعلو صوتها بالنحيب وقد ضوعفت همومها وزادت كآبتها ونمت لوعتها

ولما وصلنا الى منزلهم صعدت الى غرفتها وكذلك أمها وقد فاضت دموعها وانحدرت كالسيل المدرار وطالما سارت في سبل الهواجس وتقلبت على شرر الاسي والوساوس وفيما هي كذلك اذ دخلت عليها اختها جيوليا فحينما راتها ظهرت عليها علامات السرور واحتضنتها بلهفة وجعلت تقبلها وقالت لها لقد جئت في ساعة احتاجك فيها احتياج الظمآن للماء — والعليل للشفاء ثم قصت عليها خبرها مع هنري فدمعت عينها اسفا وحزنا على اختها لانها كانت متعصبة لها على اخيها وامها وكانت تنصحهما كثيرا وتلومهما على اهمالها حتى غضبت منها أمها وخاصمها اخوها فما كانت تعيرهم الا اذنا صماء ولم تنطو لتأنيبها بل كانت تزيدهما توبيخاً لظلمهما اختها المسكينة بزواجها من لا تحبه وتفضل الموت على الاقتران به فافضي ذلك الي هجرهما لها فلم تعبأ بذلك ولم ترعو

عن خطتها ومقصدها . الشريفان

وحينئذ تنهدت اختها بلانش تنهدا عميقا وتأوهت من تأثير آلام الحزن على فؤادها وفي الحال أغشي عليها من شدة ماحل بها من الاوجاع والاوجال فرفعتها أختها بين ذراعيها ووضعتها على سريرها وجلست بجانبها آخذة في تشميمها بعض المنعشات ورشت على وجهها ماء باردا فاستفاقت من غشيتها الا أنها قد خارت قواها وفقدت جاشها فاصابتها حمى اضعفتها وافقدتها رشدها . فلم تزل معها اختها حتى استغرقت في النوم وتركتها وذهبت الى حجرتها

ولم تزل تلك الحمى ملازمة لبلانش مدة ثلاثة أسابيع . فاحضر لها اخوها عدة اطباء لمعالجتها ولكنها كلما ترى ان ميعاد زواجها قد اقترب تزداد مرضاً على مرض وحزناً على حزن فاستأنفوا ميعاد زواجها نظرا لمرضها

وهكذا مر عليها اسبوعين وهي بين الحياة والممات تارة ترى الحمام بعينيها ثم تنجو منه وتارة يتمثل لها انها تزوجت بحبيبها هنري وانها معه في عيشة راضية فترد اليها روحها ويعود اليها رونقها وجمالها

ثم انها بعد ذلك ابتدأت في دور النقاهة حتى شفيت تماماً ومن الصدفة ان هنري بعد عودته من سهرته في الليلة المعهودة المقدم ذكرها فيما قبل مرض مرضا شديدا آلمه واوجعه كثيرا وبالخصوص لعدم رؤية حبيبته . ثم شفي منه ايضاً وقد عزم على ان يخطب بلانش من اهلها وحقق عزمه بالفعل وذهب اليهم مصحوباً برجل من ذوي الثروة والجاه وخطبها منهم فلم يجيبوه واعتذروا بأنه قد صار الاتفاق على زواجها بابن عمها وانه عن قريب يصير لها بعلا . فاستاء هنري استياء شديدا يكل عن وصفه اليراع وتعجز عن ادراكه الذاكرة وذهب الى بيته فاقد الرشد واعلم امه بما جرى

ولم يزل هكذا ثلاثة أيام هائج البال مشغول البلبال وفي اليوم الرابع وصلته رسالة من بلانش اخبرته فيها أنها سئمت المعيشة مع أهلها وفضلت أمر الهروب على اقترانها بابن عمها

فلما قرأها اهتز لها طرباً وفرح فرحا عظيما ولم يضن على خادمه محبوب بهذا السر واخبره عنه

ثم انه شرع في بيع املاكه سرا بدون علم أمه حتى لم يبق منه شيء الا البيت التي هي ساكنة فيه فنتج منها مبلغا وافرا يقوم بمعيشة عائلة كبيرة في اي جهة كانت

وفي فجر اليوم التالي ليوم فراغ بيع الاملاك كان هنري ومحبوبته وخادمه محبوب راكبين عربة متجهة في سيرها نحو الميناء البحرية . ولما وصلت اليها نزل الثلاثة منها . وركبوا باخرة كانت راسية في الميناء

وحينما نزلوها أقلعت بهم كأنها كانت معدة لذلك ثم لم تزل الباخرة تقطع البحر سيرا وتكيل الفراسخ والاميال كيلا حتى وصلت الى المدينة التي تاقت انفسهم الى المعيشة بها الا وهي بطرسبرج عاصمة روسيا . وهنالك نزل الثلاثة منها واستأجروا عربة اوصلتهم الى بيت استأجروه

هذا وهنري ومحبوبته في ارغد عيش واهناه من حين مفارقتهم لوطنهم وقد انجلى الحزن عن قلبيهما وخصوصاً بلانش الا انها شق عليها فراق اختها التي طالما بكت وتحسرت على فراقها لانها كانت أعلمتها عن سفرها فنهتها عن ذلك فلم تنته فعذرتها ولم تخاطبها بكلام مثل هذا بعد ذلك .

أما العجوز ام هنري المسكينة فانها استيقظت يوم سفرهم وسألت عن ولدها فلم تجده فظنت أنه بات عند أحد أصدقائه ولكن لما لم يحضر بعد

يومين ارسلت بعض خدم المنزل ليسأل أصدقائه عنه فلم يدله أحد بشيء يفيد فعاد الى سيدته واخبرها فضاق صدرها وحزنت حزناً شديدا

وفيما هي كذلك اذ اتاها من عند اهلها رسول يسألها عن بلانش لانها كتمتها لم تصرح لهم عند سفرها وكتمته خوفا من الفضائح وشماتة الاعداء

تفطنت العجوز أم هنري لاعمال ولدها ولكن علات املها بوجود ولدها في أملاكهم فارسلت الخادم الى محل وكيلهم فعاد مستصحبا بالخيبة . واعلمها ببيع الاملاك . فلطمت اوجينيا ام هنري على وجهها وتحققت لها خيانة ولدها وصاحت وولولت ولكن ماذا يجدي بكاؤها وماذا يفيد انتحابها وقد سبق السيف العذل وبيعت الاملاك وغدت أرملة حقيرة فقيرة لا تملك الا بعض دريهمات طفيفة لم ينقض الشهر الا وقد اضحت في خبر كان

وحينئذ طالبوها الخدم برتباتهم فاضطرت لبيع اثاث البيت وبالفعل باعته .. واعطت الخدم حقوقهم وطردتهم من خدمتها اقتصادا

ولم تزل تصرف من اثاث البيت حتى فني ولم يبق منه شيء فباعت البيت واستأجرت لها حجرة واتخذت الغسيل حرفة تقوم بمعاشها

هذا وهنري وصاحباه متمتعين بالرفاء يتصفحون صفحات النعيم واللذات ومكثوا على ذلك ثلاث سنوات وقد حملت بلانش من هنري مرتين ووضعت بنت ثم غلام . ولكن قد غدر بها الزمان وقوض دعائم حبها المتينة من قلب هنري ولم تعد ترى الالتفات الذي كان يبديه لها في الزمن السابق اي في بدء فرارهم . وكان الزمان قد أراد أن يغدر به ايضاً اذ قد ضرب الفراغ على يديه التي أفناها الاسراف والتبذير في اللذات في ارتكاب الشهوات والمحرمات لان محبوباً كان اتخذ حانة الخمر مسكنا له وهنري جعل محل القمار له مأوى

ووطنا ولم ير وجه بلانش الا مرة في الشهر او مرتين . وحينما يقع نظره عليها يستقبلها بالسب ويتهددها بالضرب لاقل هفوة

لان كثرة شرب الخمر ومجالسة السفهاء غيرت اخلاقه . فلما رأت بلانش منه ذلك التفتت الى ولديها واعتنت بتربيتهما وقد ندمت كل الندم على مطاوعة نفسها حينما اغراها هنري على الفرار وعلمت ان الله جل وتعالى يريد ان يقتص منها في الدنيا عقاباً لما جنته يداها وجزاء لها لما انتهكته من حرمة طاعة والدتها واخويها

ولما رأى هنري ان خزينة دراهمه أضحت خاوية ليس فيها الا بعض هواء يشمت بها زادت همومه ونمت غمومه وجعل يسخط على الزمن لما رماه به فبعد ان كان يحسده الاشقياء وتؤلف منهم جمعيات لسلب امواله الشاسعة وأملاكه الواسعة أضحى يحسد الاغنياء على غناهم لما اصبح عليه من الفقر الزائد

ثم انه دعى خادمه محبوب واستشاره فيما يفعل وما يدبر فقال له محبوب ان نفسي تحدثني بامر نملأ من نتيجته خزينتنا ولكنه امر بشع تقشعر من فعله الابدان . فاجابه قائلا بلهفة

- وما هو يا محبوب

اعلم يا مولاي ان لنا جارة عجوز تملك الفي جنيه وليست لها اولاد ولكن لها خادمة سوداء تعينها على اشغال معيشتها وعما قليل يفاجئها المنون وتفوز باموالها تلك السوداء . فاذا حدثتني نفسي بأن نسلب ثلثا اموالها ونترك لها الثلث الآخر تصرف منه الى حين موتها

- وهل انت متأكد من وجود الالفي جنيه عندها

- وكيف لا يتأكد لي ذلك وقد رأيتهما بعيني

- بعينك ...

- اي نعم

- كيف رأيتها

- ان الجارية السوداء خادمتها لما رأتني احبتني حباً شديدا افضى الى تصريحها لي به فجبرت بخاطرها وأجبتها رياء وكذباً اني احبها أيضاً فظنت بي خيرا وفرحت فرحاً شديدا واخبرتني عن احوال سيدتها وعن اموالها فلم اصدقها وكذبتها فاخذتني معها الى الخزينة الموجودة فيها الاموال وارتنيها فعجبت واستغربت من احوال هذه العجوز

- ان هذه فرصة ان تركناها لا نجد غيرها وتموت جوعاً ضحية للفقر ولكن بأية وسيلة يمكننا الوصول اليها ..

- نتسلق سطح دارها وبذا تتم لنا الامور على وفق المرام

فاجابه هنري مستحسناً ذلك ولما جن الليل واسبل الظلام ستره كان هنري وخادمه بل الشقيان على أهبة انفاذ مشروعهما الشاذ عن حدود الادب والانسانية والشرف ولما ازفت الساعة المحدودة صعدا الى سطح البيت وربطا حبلا سميكا كان معهما في حلقة دقها محبوب متجهة نحو دار العجوز

وهنالك تعلق محبوب بذلك الحبل وأخذ ينحدر زاحفاً على الحائط حتى وصل الى سطح الدار فتبعه هنري مستهجناً سبيل وسيلته التي اوصلته اليه ثم هبطا الى داخل البيت فسار محبوب وسيده في اثره حتى وصل الى الحجرة التي بها الاموال فلحسن حظهما وجداها مفتوحة وقد تيسرت لهما طرق الاختلاس فدخلاها وخطا محبوب بعض خطوات متجها نحو الحائط ووقف بجانب باب حديدي ملصوق بها واخرج من جيبه مفتاح صغير أعده لفتح قفل الخزينة .

ثم اخذ يعالج القفل بالمفتاح المذكور حتى فتحه وجذب الباب بيديه وحينئذ لاحت من داخله انوار الحلي والاحجار الكريمة فلما رأياها كاد ان يغشى عليهما من شدة الفرح والسرور

ولكنهما لم يلتفتا اليها بل اخذا ثلثي الاموال وقفلا الخزينة وصعدا بسرعة الى سطح البيت وهناك ... تساق محبوب الحائط ومعه الاموال . وتبعه هنري ولكن لسوء حظه في ذلك الوقت لما وصل الى نصف المسافة وكاد ان يصل الى رفيقه قطع الحبل فسقط على السطح وانحدر على السلم رغماً عن جهده الذي حاول به أن لا يسقط داخل البيت ولم يزل منحدراً الى آخر السلم وكان موضوعا بجانبه كرسياً عليه اطباق صينية فاصطدم به صدمة القته وكسرت الاطباق فكان لها جلبة شديدة ورنينا أيقظ الامرأتين

هذا وقد اغشي على هنري من شدة هول هذه الليلة ولكن الحرص والخوف من القبض عليه كانا له علاجاً شافياً افاقه من غشيته فقام مهرولا واخذ يبحث عن موضع يختبيء فيه لكيلا يدهم بضرر من نتيجة صياح الخادمة وولولة العجوز بقولها (أنجدونا اغيثونا فقد دخل اللصوص دارنا) وفيما هو كذلك واذا بيد جذبته بقوة وقائل له في اذنه ان (اسرع في الصعود لتداهمنا مئات الناس المتجمعين امام باب الدار ونذهب ضحية عملنا) فظن انه خادمه محبوبه ولم يتحقق صورته لان الظلام كان سائداً وتبعه حتى صعدا الى سطح البيت فتساق رفيقه الحائط متعلقا بالحبل وفي اثره هنري فاقتلع صاحبه الحلقة بعد صعوده وحمل الحبل على كاهله وهبط هو وهنري الى اسفل الدار فاراد الذهاب الى حجرته للنوم فرغبه رفيقه في مبارحة البيت هذه الساعة حتى يهدأ الهياج والهرج الحاصلان بين الناس . فاطاعه هنري وخرجا من البيت

حيث كانت مركبة واقفة بجانبه واربعة رجال الى جانبها

وهنالك صفق رفيقه ثلاث تصفيقات تبعها هجوم اولئك الرجال على هنري وحمله الى المركبة ووضعه بجانب خادمه الذي قد قبض عليه قبل سيده فلما رأى هذا اراد الصياح ولكن لم يتمكن لانهم قد وضعوا على فمه خرقة مندداة بالماء فصار كأنه في سكرة لا يعي لشيء

ثم سارت المركبة بسرعة تشبه الطيران متجهة نحو الجبل خارج المدينة نحو ساعة ووقفت امام سرداب كبير فنزل اولئك الرجال وحملوا هنري وخادمه وادخلاهما السرداب ثم اغلقوه خلفهم فتقدم أحدهم اليهما واخذ يهددهما وينذرهما بالوعيد

﴿ الفصل السادس ﴾

يتوق القارىء الى معرفة أولئك الرجال والاسباب التى دعتهم الى ما فعلوه مع هنري وخادمه فنسرد له خبرهم قائلين

يتذكر القارئ ما ذكرناه في الفصل الثالث من خبر الجمعية التى تجمعت لسلب أموال هنري واحتيالهم عليه وسجنه وفراره الخ الخ

فلما علمت أن أعمالها لم تنجح وذهبت ادراج الرياح تذمرت عليه غيظا وغضبا وبثت له المصائد وانقلب مشروعها من الاختلاس الى الانتقام وخصوصا حينما بلغها أنه باع املاكه . ولما سافر ارسلت وراءه أولئك الرجال ليوقعوه في حفرة مكرهم وبالفعل لم يزالوا يرقبون حركاته وسكناته بدون أن يشعر بهم . ففي تلك الليلة التى كان اعدها لسلب اموال العجوز المسكينة كان غرماءهما مستعدين للايقاع بهما ... والذى قطع الحبل الذى كان متعلقاً به هنري هو

(روذان) المتقدم ذكره فيما قبل وهو الذي ساررهُ في اذنه بقوله (اسرع في الصعود .....) وهو الذي هددهما في السرداب

ثم أن الرجال بعد تهديدهم لهنري وخادمه تركوهما وسدوا عليهما السرداب سدا محكما لكيلا يتمكنا من الفرار كالمرة الآنفة فسكنا في السجن الي آخر النهار وهما يتضوران جوعا وكلما دخل الليل يشتد عليهما الظلام حينا فحينا فلشدة حذق محبوب استدل على وجود منفذ في السرداب وتحقيقا لظنه اخذ ينقب و ينظر بأمعان في أركان السرداب حتى عثر على منفذ صغير فوسعه بمدية كانت معه حتى امكنهما الخروج منه

وهنالك صفقا صفقة السرور لنجاتهما من سجن يريا فيه العذاب الواناً وسارا قاصدان بيتهما بسرعة تشبه البرق الخاطف وهما من شدة الفرح يكادان يغشى عليهما فوصلا في لحظة قصيرة ولحسن حظهما وجدا اموالهما التي اختلساها من العجوز المسكينة لان محبو بأ لما سقط سيده في دارها أخذ الاموال ونزل يضعها في صندوق اموالها ويأتي معه بحبل يصعد عليه سيده فوضع الاموال وهبط الى الطبقة السفلي ليأتي بالحبل فأخذه الرجال رغما عنه ووضعوه في العربة بعد ان شدوا وثاقه

هذا وبلانش لما استيقظت في اليوم الثاني ولم تجدهما لم يعتريها ارتباك ولا كدر لانها قلما تستيقظ في يوم من الايام وتجدهما ولما جن الليل نامت هي ووالديها غير مشغولة القلب على قرينها وخادمه لتعودها على غيابهما

ولم يأت الصباح على هنري وخادمه الا وقد جمعا الثمين من اثاث بيتهما وصارا على أهبة السفر وفي الحال شحنوه في احدى البواخر المستعدة للسفر في ذلك اليوم الى مدينة رومة . ولما أن تضاحي النهار أقلعت الباخرة بهم وسارت الهوينا

حتى ابتعدت عن الشطوط الروسيه . ثم أخذت توالى السير حتى وصلت الى المدينـة المقصودة فغادروها الى احدى الفنادق الجميلة اذ أن اعتمادهم على دراهمهما كبير

ولم يعتبرا بما رأياه في بطرسبورج من فراغ دراهمها وفقرهما الذي الجأهما الى الاختلاس بل انهما كل ليلة يذهبان الى محلات المقامرة وليلة يقضيانها في المراقص وهكذا مرت عليهما ثلاثة اشهر أفنيا فيها نصف أموالهما

وفي يوم من الايام في الساعة التاسعة صباحا كانا جالسين في حجرة يتحدثان ببعض شؤنهما فمل هنري ذلك المجلس فقام واصطحب معه خادمه وخرجا من البيت وأخذا يجولان في الشارع ليمتعا انظارهما بمناظرها البهية فوقع نظر هنري على بيت جميل كائن في وسط حديقة لطيفة قد مدت من اشجارها فروعا خضراء عانقت ذلك البيت فصار كأنه مرتديا بحلة نباتية قد طرزت بلآلئ الزهر الأنيقة تروق لأعين الناظرين

وعلى باب ذلك البيت عربة على وشك السير بأحد اربابه ولم تمض بضعة دقائق الا وقد بدت فتاة مرتدية بملاءة وردية وعلى وجهها قناع رقيق أبيض ... أي باللباس الشرقي ثم ركبت تلك العربة فسارت العربة بسرعة تشبه الطيران

لا يعلم القاريء ما حل بهنري من الارتباك والاندهال حين مشاهدة الغادة الفتانه التي تركته وهو مشيعها بنظره حتى اختفت عنه فلبث مضطرب الفكر يرق له القلب القاسي

فلما رآه خادمه بهذه الحالة استغرب وتعجب من حالته وكثرة تنقل قلبه في منازل الحب وكيف أنه علق ببلانش قبل الاقتران بها حتى كاد أنه

يجن من شدة حبه لها ثم بعد أن اجتمعا وانتظم شملهما ورزق منها بمولودين بغضها وكرهها . ولكنه تجاهل حالته وقال له

- مابالك ياسيدي وماذا دهاك حتى وقفت هكذا مندهلا

- كيف لا أذهل وقد فقدت رشدي وزادت بي البلوى . الم تر تلك الغادة الحسناء التى تركتني كما ترى معنى كئيباً لا أعرف خلفي من أمامي فأسألك بحرمة الصداقة والاخوة الا ماذهبت الى بيتها واستعلمت عن اخبارها حالا

فذهب محبوب الى حيث أمره سيده فوجد خادم البيت جالسا أمام الباب . فلم يزل يحادثه ويخادعه حتى استعلم منه عنها وعاد الى سيده فبادره قبل ان يصل اليه بقوله

- ماذا علمت من أخبار مالكة رقي وقيادي . . .

- يامولاي خبرها وحديثها يحتاجان الى اسهاب وتطويل

- دع هذا الهذيان واخبرني عنها فقد كدت أن أذوب شوقا اليها

- اعلم ياسيدي أنها فتاة مصرية قد توفي زوجها وترك لها ثروة واسعة وقد حضرت الى هنا بقصد السياحة وهي الآن مستعدة للسفر عن قريب فلا تعلق . . . آ ماالك بها يامولاي فانها بعيدة المنال

- لاتلمني ولا تنهاني عن حبها فهيهات أن أسلو حبها فأنه قد تمكن من قلبي وامتزج بدمي ولحمي فهلم بنا الى البيت لأدبر احوالي وانظر مصلحتي وفائدتي

- هلم يامولاي وافعل ماتريد ولكن ليكن عندك علم بأنها ستبارح رومه غدا

- ويلاه غدا تبارح رومه . اسرع يا أخي أسرع

ثم انهما سارا متجهان نحو البيت حتى وصلا اليه فحينما دخلاه قابلتهما أوجينا بنت هنري التي كانت بلغت الخامسة من عمرها وارادت أن تحتضن والدها ... فدفعها بيده فاستلقت على ظهرها وشجت رأسها واخذ الدم يسيل منها فرق لها قلب محبوب ورفعها عن الارض ومسح الدم الذي سال على وجهها الجميل لانها ورثت من والدتها جمالها القديم

ولم يزل معها محبوب حتى طيب خاطرها وجفت دموعها فدخلت الى أمها فلما ..رأتها على هذه الحالة سألتها عن الذي فعل بها هذه الفعال فأخبرتها أنه والدها فجعلت تبكي وتنتحب وتؤنب نفسها على عصيان أهلها وفرارها من عندهم وطاعتها لهذا الوحش الضاري

اما هنري فأنه جلس أمام خادمه صامتاً لا يفوه ببنت شفة متفكرا في محبوبته الجديدة وما زال على هاته الحالة مدة طويلة ثم قام بغتة من على الكرسي كأنه ظفر بحاجته وخرج توا بعد ان أوصى محبوبا بالجلوس في البيت اثناء غيابه وسار بسرعة قاصدا بيت محبوبته الجديدة حتى وصل اليه فاعطى الخادم بطاقة يلتمس بها مقابلتها وترجاه في ان يوصلها اليها . فدخل الخادم واما هو فمكث واقفا أمام الباب حتى عاد الخادم وبلغه الاذن بالدخول ... فدخل والخادم امامه . فوجد البيت من الداخل جميلا نظيفا يدل على رقة مزاج صاحبته . ثم اندفع سائرا في اثر الخادم حتى دخلا غرفة مزخرفة بالنقوش والاثاث الفاخر ووجد في صدر الغرفة كرسي وتلك الغادة مستوية عليه فذهل هنري من جمالها الباهر الباهي

ثم تقدم وجثى على ركبتيه أمامها وأخذ يلثم ركبتيها ويبدي مهارته ورقته المعهودة التي تسلب العقول . ولم يزل يبث لها شوقه وغرامه ويطارحها

آيات هيامه وهي صامتة لا تبدي ولا تعيد كأن فعاله حلت عندها محل الازدراء

ولما رأته لا ينتهي عن فعله صاحت عليه قائلة

ـ هل انت معتوه أيها الشاب أم انت جاهل الى هذا الحد حتى تهجم على الناس في بيوتهم وتشافههم بمثل هذا الكلام الذي لا يصدر عن عقل سليم وادب بل لا يصدر الا من حيوان قد غذي بلبان الجهل

فنزلت تلك الكلمات على قلب هنري نزول الصاعقة ولكنه اندفع قائلا

ـ سيدتي ومالكة رقي اعلمي اني لم يشجعني ويحرضني على مشافهتك بهذا الكلام الا الحب الذي قد تمكن من قلبي أي تمكن فألتمس من فضلك عذرا وصفحاً واعلمي اني اسير هواك واني عبد قد لجأ الى حماك فان أجبتيه فقد حقنتي دمه ونلتي الاجر الجليل والرضاء الجزيل من الله وان رددتيه خائباً فقد جعلتيه هدفاً لسهام الآلام والسقام وفريسة لآساد الحب تغتاله وها أنا بين يديك فافعلي ما تشائين ولك الامر فاقضي ما تقضينه

لقد تطاولت أيها الفتي وأسهبت في كلامك العاري من أدنى شرف في هذا الموضوع . كيف تتجاسر على الدخول في بيوت من لا تعرفهم ولا يعرفونك وليس بينك و بينهم أقل علاقة أظننت انهم عبيدك الخاضعين ولأوامرك فاعلين أم تخيل لك ان محبتك تدخل في قلوب الناس عنوة بدون سابقة تقتضي ذلك حتى فعلت ما فعلت

ـ مهلا ياسيدتي رويدا فاني قلت لك ان ما حملني على هذا الفعل هو حبي لك وتلهفي على رؤيتك فكوني كريمة ولا توجعي محبك بمثل هذا الكلام

واقبلي محبتي وانتشليني من وهدة هذا الهجر فان جسمي أضعف من ان يحتمله وان كنت اذنبت او اتيت شيئاً يسئك او ارتكبت مما حظرتموه فها أنا بين يديك فاقتصي مني فانا راض بما تفعلينه

ـ اصمت أيها الشاب وقم وانسحب بسلام قبل ان يصدر منا في حقك ما يسئك او يضر بك

ما وصلت هذه الكلمات الى اذن هنري الا وتساقطت دموعه وانهلت عبراته على صفحات خديه وتأوه وتأفف وكاد ان يغشى عليه من شدة الحزن والاسف فقالت له برقة وبشاشة

ـ أرفق بنفسك أيها الفتى واشفق على زهرة شبابك الغضة واعلم أني ماصدر مني لك هذا الكلام الا من حبي لك لاني أردت أن أخبرك به لأعلم هل كلامك صحيح وهل أنت تحبني حقيقة أم لا لأني والله أحبك من صميم قلبي وما بلغ بك الحب الى درجة الا وعندي امثالها

فانتعشت روح هنري حينما سمع هذه الكلمات بعد أن صارت حالته لاتوصف من شدة الكدر ثم قال

ـ لاتحسبي ياسيدتي أن كلامي هذا وحالتي هذه يدلان على كل حبي بل أني لو كنت افصح الناس بيانا واستعرت مهارة أحسن ممثل في العالم لأوضح لك بها حالتي الحقيقية وما احتوى عليه فؤادي من الحب لك ما كنت الا كالضارب على الحديد البارد أو كالناقش على صفحات الماء ولكن حسبي قولي اني محبك الصادق على مر الدهور والأعوام الذي لا يتغير ولا يتلون مادام فيه رمق من الحياة فثقي بقولي وبي ثقة تامة واعلمي ان كلامي هذا هو عين الصدق

— اني لا أشك في قولك ولا ارتاب فيه بعض الريب لما احتوى عليه ضميري من حبك لاول وهلة رأيتك فيها وقد وقعت محبتك في سويداء قلبي وستكون لها قبرا ومقرا تبقى فيه مادامت يميني رفيقة شمالي وما دمت أعرف كيف أحفظ العهد

— لله ما احلاك ياحبيبتي وما أرق طبيعتك لقد حزت كل اللطف والكمال بجمال قلما يوجد وألفاظ حازت من الرقة خلاصتها واخلاق حسنة لا يشينها منتقد بصير

— أنت أولى مني بهذه المزايا وأجدر بأن تتصف بكل صفات المدح الحميدة.. ولكن دعنا من هذا الكلام الآن ولنتكلم بما هو اهم منه لأن الوقت قصير وقد آن حين الرحيل

— أنا لا يهمني وقت الرحيل حيث أني قد عزمت على مرافقتك في الاقامة والسفر ان قبلتي وأملي أن لا ترفضي طلبي ياحبيبتي

— هل يرفض الظمآن الماء أو المضطر صاحبه ولكني لاأستطيع مرافقتك في هذه المرة لأن جميع الناس يعلمون أن زوجي توفي فان رأوك معي يظنون بي ظناً غير حسن ويسقط شرفي من أعينهم ولكن ما علي الا أن اعرفك محل اقامتي بمصر فأتيني به حينما تريد بعد وصولي

— لك الامر ياحبيبتي وما أنا الا طوع يديك فافعلي ماتشائين

— اعلم أن منزلي كائن بشارع ... امام ... بالعاصمة فأتيني به في اي وقت تريد

وعلى هذا تمت المحادثة بينهما بعد ان أخذ هنري يوضح و يعبر عن مقدار حبه لها ثم استأذن منها وانصرف فاندفع سائرا الى منزله متفكرا في محبوبته

الجديدة وحبه لها ولنعد الى بلانش زوجة هنري المسكينة فنقول

ظلت المسكينة تندب سوء حظها لما عانته من الاهوال والمشاق في سبيل رضاء زوجها . ومجازاته لها بتلك القسوة التي لا يفعلها انسان سقي من مياه الانسانية والآداب نهلة واحدة . واخذت ترسل دموعها على خديها من شدة آلام الحزن التي ألمت بها وتأوهت تأوها مختلطا بأنين وبكت بكاء زائدا فرقت لها بنتها الصغيرة وقالت لها اتركي هذا البكاء لئلا يأتي والدي ويراك هكذا فيغضب عليك

فزادت بكاء على بكاء وعلا صوتها بالنحيب وتراكمت عليها الاوجاع حتى اغمي عليها وسقطت على الارض مضطربة لا تعي لشيء . فولولت بنتها وصاحت صياحاً مزعجاً واستلقت على امها تقبلها في جبهتها وتسقي رياض خديها بوابل دموعها السخينة ولم تعلم بان تلك الحالة سيعقبها الفرج العاجل والنعيم الدائم

فقد اوحت الى بلانش المسكينة في غشيتها وسائل البشرى بالخلاص من هذه الورطة آلهة السعادة . اذ قد تخيل لها كأن طائف طاف عليها في غشيتها وبث في قلبها روح الامل او سبب انتشالها هي وولديها من هذه الوهدة العميقة على الفور بل من امام ذلك الوحش الضاري

ثم مكثت على تلك الحالة مدة طويلة طالما بكيا في اثنائها ولديها حتى كادت ان تزهق روحها وما استفاقت امها الا وقد بللا ثيابهما بدموعها الحارة

قامت بلانش من رقدتها وأخذت تسكن جاش ولديها وتتلطف بها حتى هدأ روعها وجفت دموعها ثم حملت ولدها الصغير على كاهلها وقبضت

على يد بنتها بيدها ومشت وهي بجانبها حتى خرجت من البيت على غفلة من محبوب وسارت على عجل بالرغم عن بنتها الضعيفة التي لم تبلغ الدرجة التي تتحمل كل هذه المصاعب

ولحسن حظها وسعادة ولديها سارت في خلاف الشارع الآتي منه زوجها بل عدوها الألد الذي فرت منه ومن شراسته الثقيلة

ولم تزل توصل السير في شارع بآخر لتهتدي على مأوى تأوي اليه هي وولديها اللذان يحتاجان الى كنف يلوذان به الى أن يبلغا رشدهما او ملجأ يقيهم سطوة البرد وبطش الحر حتى يفتح لهم باب الفرج

فذهبت كل آمالها أدراك الرياح اذ قد اسبل الليل ستره واسدل الظلام جنحه واشتدت عليهم وطأة الجوع وليس معها شيئاً تسد به رمق ولديها فضلا عنها وقد فتر عزمها وخارت قواها من كثرة التعب الذي عانته طول نهارها ومن حمل ولديها على كتفيها . وبالاختصار فقد تراكمت عليها اسباب الهموم من كل جهة وسدت في وجهها ابواب الفرج فجلست بجانب حانوت لرجل نجار بلحية لثه قد تنبت فيها الشيب واحنى ظهره مر السنون فلم يعد يستطع القيام باعمال حرفته وحده فاستعان ببعض العمال . فلذا كان في ذلك الحانوت جلبة وهرج من اصوات اولئك العمال

هذا ولما جلست بلا نش المسكينة وبجانبها ولديها وهما في حالة يرثى لها من اشتداد الجوع والتعب عليها فهمت بأن تلتمس من ذلك النجار كسرة أو بعض دراهم تسد بها رمق ولديها . ولكن عزة نفسها وانفتها أثنتا عزمها لانها تربت في مهد الدلال والعز ولم تر الذل الا على عيني زوجها المتوحش بل على عقب عصيانها لاهلها واستنهاجها سبل الهوى والضلال

فزادت بها البلوى من مشاهدة ولديها على هذه الحالة فهطل دمعها مدرارا وأنت ... أنينا يلين القلوب القاسية بل يفتتها . فلم يكن من ولديها الا أن اجاباها بضعف ما فعلت حتى صار منظرهما محزن يثير الاحزان رحمة لحالهم

ولم تمض بضعة دقائق الا وقد أتم النجار أعماله وبدأت تنسل عماله الى محلاتهم حتى لم يبق الا هو وولد له . ثم خرج ايضاً وابنه معه

فاستوقف نظره تجمهر عماله على بلانش المسكينة ومخاطبتهم لها بكلام شاذ عن حد الرقة فنحا نحوهم ليعلم سبب وقوفهم

فعند ما وقعت انظارهم عليه تفرقوا من حولها واخذوا يتوارون خلف بعضهم خوفاً من توبيخه لهم فلم يلتفت الى ذلك وسار حتى صار امامها وسألها قائلا

— من انت أيتها الفتاة لم انت جالسة مع هذان الطفلان في هذا الوقت وما السبب في ذلك فاختارت السكوت جوابا له وقد استغربت من لهجته وكثرة أسئلته ولم تعلم بماذا تجيبه فأعاد اسئلته ثانياً وقال

— اجيبي والا أنادي الشرطي فيعاقبك

فقالت في نفسها يا لكم من رعاع قد جبلتم على حب الاستطلاع والسماجة ولكنها خافت من ان يعقب ذلك اللفظ قوله بالفعل فقالت

— ماذا أقول لك ياسيدي وبماذا اجيبك وانا امامي شياطين ليس لهم سوى الاستهزاء بالناس والاستخفاف بهم ديدنا وشعارا

فحلت هذه الكلمات عنده محل الرحمة لها فصرف جميع العمال من حولها وخاطبها بلطف ورقة قائلا

— أظنك غريبة وليس عندك خبرة بأهل هذه البلاد حتى جلست في هذا

المكان في هذه الساعة التي ينتشر فيها جميع الناس خيارهم وشرارهم في جوانب المدينة

— اصبت يا سيدي

— اذا انت من اي جهة

— ليس هذا محل مثل ذلك السؤال . بل اني لا أستطيع التفوه وانا على هذه الحاله ففطن الرجل لها واستصحبها معه الى بيته حيث وجد زوجته واولاده في انتظاره

وكانت زوجة ذلك الرجل غيورة تنفعل من أقل هفوة تصدر من زوجها وتوسعه شتما وسباً وتؤنبه وتتهمه بخيانتها مع تقدمها في السن والكبر ولا بدع فمن شب على شيء شاب عليه

ولذا حينما رأت بلانش وجمالها الفائق أتت صحبة زوجها دبت في قلبها عقارب الغيره وضاقت في وجهها الدنيا بما رحبت فكادت أن تصرح لبلانش بما اكنه ضميرها ولكن عارضها الحياء وبعض الخبث فثنيا عزمها عند ذلك فابقته لزوجها . ولما خلت به انتهزت تلك الفرصة واظهرت له ماخبأته في جعبة فؤادها من الغيظ والحنق واعرضت عنه ولم تجبه حينما خاطبها . فالح عليها بلين الكلام وكثرة الأسئلة اللطيفة ظناً منه أن ذلك يرضيها ويذهب مابها من الغيظ فلم يكن منها الا أن صاحت وولوت في وجهه قائلة

— اذهب الى عشيقتك التي أتيت بها فانها أجمل مني وألطف وأما أنا فمن الآن أصرح لك بأني لا أحبك بل أفضل النظر الى وجه القرد على النظر الى وجهك القبيح وصوت البوم على كلامك السمج الذي غيرت بهجته خفة عقلك لانه قدشاخ وضعف فصح فيك المثل المشهور (ازداد الطين بله) لأنك

كنت قبل هرمك وأنت شاب احمق من هبنقه فصرت لا توصف ولا يعبر عن جنونك اذ سول لك ان تنظر بعين الصبوة والتغزل الى تلك الفتاة بعد أن صارت لحيتك اطول منك . وأدى بك سوء الطبع الى أن تأتي بها الى بيتك . أظننت أني جننت مثلك حتى أرى ذلك بعيني واسكت لك على ارتكاب الفواحش أمامي يالك من مجنون يا لك من أحمق

فصمت زوجها المسكين ولم يجبها بشيء ما خوفاً من صفعها اياه لانه كثيرا مايرى ذلك منها حينما يلاججها و يعارضها وقت غضبها

لا يعلم القارىء ماحل بيلانش من الضجر حينما سمعت هذا الكلام من تلك اللئيمة مع زوجها . لانها كانت خرجت من محل نومها الذي عينته لها ذلك النجار لقضاء حاجة فسمعت هرج المرأة من اجلها فصمتت لتعلم ماذا يحصل بعد ذلك وقد تعجبت من تفاوت الطبائع واختلاف الضروب بين الناس لان طبيعة تلك المرأة وحالتها مع زوجها بعكس ذلك بينها و بين زوجها هنري وكذلك حالته معها بخلاف حالة ذلك الرجل مع زوجته

وبعد ان تمت المحادثة بل المشاحنة بين هذين الزوجين عادت بلانش الى محلها وهي لا تعي أين تضع قدمها مما حل بها من الكدر وقد ساورتها الهموم واحتاطت بها الغموم فاستلقت على وسادتها بجانب ولديها مستسلمة لعوامل الترح قاصية عنه اذنى فرح . فلم يزر طرفها الرقاد في تلك الليلة و بقيت مستيقظة الى الصباح وقد عزمت على مفارقة هذا البيت وتركه لصاحبته الثقيلة

وحينئذ ايقظت ولداها واخذتها وخرجت تاركة ذلك البيت ومافيه ولكنها قد سئمت المعيشة والحياة مما عانته وعاينته من الاكدار والانكاد في حياتها الذميمة

﴿ الفصل السابع ﴾

يتذكر القارىء ان عائلة مونمورانسي التي هي منبت غادة روايتنا كانت هاجرت الى ايطاليا واقامت بها مدة كبيرة تشعبت اثناءها وانفصلت منها فروعاً كثيرة وتفرقت في جوانب رومه ثم انقرضت جميعها ولم يبق منها الا رجل واحد وكان انخرط في سالك الجيش فنال جاها عظيما وثروة جليلة لان رؤساءه ووجهاء دولته احبوه لشجاعته واقدامه في الحروب واصابة آرائه في المسائل السياسية المهمة . حتى ارتقى الى اناطته بقيادة فرقة عظيمة من الجيش الايطالي فكان لها كفؤاً كريماً بل كان عضدا للجيش وعضوا عاملا في جسم الدولة

ولم يزل يرتقي من درجة الى ارفع منها ومن منزلة الى مافوقها حتى حصل الى وظيفة قائد الحرس الملوكي الايطالي . وحينئذ كان راتبه الشهري عظيما يقوم بمعيشة عائلة كبيرة . فتزوج بنت امير من امراء رومة فكان مساعدا له في جميع اموره وشيد له منزلا جميلا الي جانب بيت صهره وقد هادنته صروف الزمان وسالمته حوادث الليالي والايام فلم يعد يرى ما يكدر صفو عيشه .. بعكس بلانش بنت اخته . ولكن شتان بين فعله وفعلها فانه رجل طيب الاخلاق حازم في فعله شفوق يعد اغضاب احد اولاده من اكبر الآثام

قلنا ان بلانش كانت خرجت من بيت النجار لتستريح من شراسة امرأته الغيورة . فأخذت تسير في الشوارع غير مهتدية الى ما يأويها هي وولديها فلما تحقق لها ذلك وقد كات من فرط التعب وفتر عزمها من كثرة المصاعب التي تجشمتها طول هذه المدة . جلست بجانب منزل جميل توسمت في اهله

الخير لما رأت من علائم البشر التي تلوح على وجوه الخدم الذين هم منصوبون أمام باب المنزل لتأدية اوامر سيدهم الذي له شأن كبير في مسألة بلانش أو بالحري عمها العاقل الشفوق

مكثت بلانش بحذاء البيت من اول النهار الى آخره تندب سوء حظها بدموع الاسف وهي تكاد ان تمزق كبدها أسفاً على ولديها اللذان قد صير التعب جسديهما مثل الخلال واوهن الجوع قواهما حتى كأنهما ما خلقا الا ليشقيا في حياتهما الذميمة ويكابدا منهكات هذه المشقات الجسيمة من اول منشأهما وشرخ شبابهما

ولما كان عند الغروب أتت عربة مسرعة في سيرها ووقفت أمام البيت فنزل منها رجل يظهر عليه أنه في الاربعين من عمره الا ان قواه باقية على حالتها ولم يفقد منها الا القليل لتعوده على الرياضات الحربية فلما رأوه الخدم قابلوه باحتشام ومثلوا امامه حتى ادوا فروضه الاحترامية فتركهم ودخل الى البيت

هذا وبلانش حينما رأت ذلك الرجل حنت اليه جوارحها ولا يخفى ماذا يطرأ على الغريب حين رؤية احدا من بني وطنه فضلا عن كونه قريبه ، وقد تذكرته ولكن لم تتحققه جيدا لانها لم تره منذ مدة طويلة حينما كانت عائلتها موجودة برومه

ثم اسبل الظلام على جميع المواضع وصارت أنوار النهار في زوايا الاختفاء فزادت بيلانش البلابل واخذت تتناوبها الأوهام والظنون الى حد أذهب عزتها وأنفتها والجأتها الى الالتماس من أهل البيت أو بيت عمها بعض الخبز لتغذي به ولديها فأجابوها بكل ارتياح لذلك ، فسرت غاية السرور وأخذت

تطعم ولديها حتى اكتفيا فأكلت هي ما بقي منها من الخبز ولكنها لم تعلم أين تأوي هي وولديها في هذا الظلام الحالك وذلك البرد القارص فحدثتها نفسها بأن تلتمس من أهل البيت أيضا أن يعيروهم محلا يبيتون به الى الصباح وبالفعل ذهبت الى الخدم وخاطبتهم في ذلك فاستأذنوا من سيدهم في ذلك فأذن لهم عن طيب خاطر ورضاء نفس

فزاد بلانش ذلك سرورا على سرور وأيقنت ان الله قد وهبها رضاه وفضله وان ذلك فاتحة السعادة الأبدية التي لا شقاوة بعدها . ثم ذهبت مع بعض الخدم الى المحل المعين لها وهناك وجدت فراشا فاخرا قد فرش به ذلك المحل فباتت مع ولديها في راحة لم تحظ بها منذ فرارها مع قرينها

باتت بلانش ليلة يعجب لها فيها كل انسان يطلع على حالتها التي قضتها بها فانها كانت تارة يغلب عليها السرور حتى تدمع عينها لراحة ولديها في تلك الليلة وطورا تبكي بكاء مرا بحرقة وتلهف كلما تتذكر ان يصبح الصباح وتخرج من هذا البيت بل من هذا النعيم وتعود الى حالتها الاولى وتقاسي مشقات الجوع وآلام التعب . وفيما هي تبحث في جعبة فكرها على وسيلة أو حيلة تخلصها من هاته المعيشة الضنكه وتنتشلها من تلك الوهدة العميقة الغور . اذ عثرت على فكرة استوقفت شوارد خاطرها وخففت من حزنها بعض التخفيض . الا وهي مفاتحة عمها بشأنها واعلامه عن نفسها وتسليمه زمام شرفها فان صانه كان خيرا وان اهمله واذاعه نحرت نفسها واستراحت من عذاب الدنيا

ولما اصبح الصباح واختفت ظلمات الليل واستيقظ كل من في البيت بادرت الى تنفيذ ما استقرت عليه تدابيرها فأرسلت أحد الخدم الى عمها بعد

ان اعطته ورقة خطت فيها بعض اسطر سمح بها خاطرها وجادت بها قريحتها وأمرته ان يوصلها اليه فذهب الخادم وأما هي فجلست تنتظره اذ من مقتضى ما خطته اليه لا بد ان يحضر

ولم تمض بضع دقائق الا وعاد الخادم واخبرها ان سيده سيحضر بعد لحظة قصيرة . فتورد وجهها من شدة الخجل ولم تدر بأي وجه تقابله وليس لديها عذر تثبت به امامه ولكن ما سمعته عنه من حسن الذكرى والاحاديث الطيبة التي تنبيء بأنه شفوق وجنوح الى الحق أوجد عندها بعض الامل الذي أسكن بعض جاشها . ولم تمض لحظة الا ودخل عمها الرجل الحليم فقامت منتصبة على قدميها احتراماً له وقياماً بواجبه . ولكنها قد عاد اليها الخجل ثانياً واحمرت وجنتيها حتى صارت مثل الجلنار . ثم انه لما دخل حياها بتحية لطيفة وخاطبها قائلا

- لقد تشرفنا بوجودك في منزلنا هذه الليلة أيتها الفتاة

- واني لمسرورة جدا باكرامكم الزائد لي وهذا ما يدل على جودكم وأريحيتكم الكريمة

عفوا عفوا يا ابنتي فان ما فعلناه معك ليس الا بعض الفروض الواجب علينا تأديتها لكل فرد من افراد الناس

- هذا من لطفكم وحسن أخلاقكم ولو كانت كل جوارحي السنة تكرر الثناء لتفي بشكركم ما كنت الا محاولة شيئاً مستحيلا ومما زاد سروري اني أرى هذه الاريحية في بعض أفراد عائلتي

فاحتار الرجل ولم يفهم معنى الجملة الاخيرة فقال

- وما معنى عائلتك هنا

- كلا بل عمي بل والدي
- اني لم أفهم شيئاً فأوضحي أوضحي
- بالله أيوجد بعد هذا ايضاح الم تفهم للآن
- لا تقولي هكذا بل قولي أبعد هذا تورية ومداراة . يلزم التوضيح اذ المكان خالي ولا يوجد أحدا يسمع ما تقولين ان كان يحتاج الى سر واخفاء
- سأوضح ولكن بعد ايمان ومواثيق منك على ان تعدل فيما تفعله معي بعد ان تسمع ماسأقوله لك وان تحرص عليه لانه هو زمام شرفي بل حياتي
- اقسم لك بشرفي و بذمتي اني أفعل ما شئت وما اردت مهما كان في الامر
- الآن أأمن على ان أبوح لك بسري بل بما فعلته من الاعمال الدنيئة

وليس لي شفيع لديك سوى ثقتي بك و بكرمك وحسبي بها شفيع

وابتدأت تقص عليه قصتها وما جرى لها من بدئها الى نهايتها . وقد ساعدتها دموعها بتساقطها على وجنتيها فصار المنظر يلين له القاسي ويرثي له الجحود . فرق لها عمها وقد علم ان الذنب على أمها واخيها وان لا عتب عليها .

لان عمها كما قلنا رجل عاقل شفوق ميال الى العدل لا يحيد عن طريق الحق ولو على نفسه . ثم انها لما أتمت قصتها طيب خاطرها وتعجب من طباع قرينها وشراسته اذ عاملها بعكس معاملتها له حتى كاد أن يتميز من شدة الغيظ الذي استولاه فسألها عن محل سكنه ليجازيه بمقتضي معاملته لها ولكنها من

طيب قلبها وصفاء سريرتها لم تعلمه عنه خوفاً عليه من أن تمد اليه يد العقاب الشديدة

لانها مع ما رأته منه من القسوة والعنف لم تفني كل محبتها له بل بقيت منها بقية مستورة بشغاف قلبها

فالح عليها لتعلمه عن محل اقامته فعلمت أنه لا ينفع في ذلك الوقت الا الحيلة فقالت له . اني قبل أن أفارقهم كانا عازمان علي مبارحة رومه في صباح أمس وقد رأيتهما في ذاك الميعاد سائران الى المحطة ومعهما بعض أشياء فتأكد لي حينذاك أنهما مسافران

فحل ذلك عنده محل الصدق ولم يراجعها فيه ثانيا

الفصل الثامن

مازال هنري سائرا يقدم رجلا ويؤخر أخرى متفكرا فيما سيتم له مع محبوبته حتى وصل الى بيته حيث وجد خادمه بل صاحبه محبوب جالساً ولكن ظاهرة عليه علائم الكدر وضوعفت حينما رأى سيده آتياً وذلك ليس الا حينما علم أن بلانش قد فرت من وجهه هو وسيده

وحينما رأى سيده عائدا وسمات البشر والسرور ظاهرة عليه من رضا محبوبته عنه وقد بدأ يحدثه بما جرى له معها فقطع عليه حديثه وأعلمه بفرارها فلم يتأثر من ذلك وصادف عنده كل ممنونية وسرور اذ أجابه قائلا

ــ هذا ما كنت اتمناه منذ زمن غير قصير . واني لاعجب لك اذ قد تأثرت من ذلك . ولو اني عدت ووجدتها باقية لم تذهب ما كنت الا طاردها الى حيث تجد حتفها جوعاً وعطشاً

ـ اذاً ندعوا لها اذ قد فرجت عنك ما كنت تتحمله من ثقلها

ـ أي نعم ندعوا لها بأن تستريح من هذه الدار الفانية كما كانت تقول وترغب فأجابه بضحكة صفراوية وقال

ـ يالك من شاب ما اسرع تقلباتك وتنقل قلبك في الحب كيف انقضى ذالك الحب الذي كنت تلهج به منذ زمن يسير

بحقك دعنا من هذه السيرة فانها ثقيلة على أذني كأنها وقرا واعرني سمعك حتى تقف على قصتي

ثم انه اخذ يسرد له خبره مع صاحبته حتى أتم وقد وقف محبوب على أنهما سيسافران الى القطار المصري بعد مضي أسبوعين

وما مرت المدة التي حدداها الا وقد صارا على وشك السفر أو بالحري على ظهر احدي البواخر المستعدة للاقلاع الى الثغر الاسكندرى . ثم مرت عليهما أيام السفر مرور أعوام قضياها بين نوم وصعود الى أعلا الباخرة ولعب الورق مع بعضهما . ولما وصلت الى الثغر بارحاها الى احد الفنادق حيث قضيا فيه يومين استراحا فيهما من عناء السفر وشربا فيه كؤس السرور مترعة في حب الوصول الى (بلد فيها الحبيب مقيم)

ثم انهما بعد ذلك بارحا الاسكندرية قاصدان القاهرة (معدن اللطائف ومنبع اللذات الفاخرة) على قطار (الاكسبريس) . وتخلف هنري في احدى المدن الشهيرة لقضاء بعض أوطار سنحت له وارسل خادمه الى مصر . ولما قضى نهمته جاء ممتطياً صهوة القطار المقدم ذكره فسار يطوي المهاد ويجوب الفضاء بسيره الى العاصمة

وهنا نذكر القاريء مما ذكرناه من خبر الشاب أوهنري الذي كانت

العربة في انظاره أمام المحطة وذهابه هو وخادمه محبوب لرؤية محبوبته الجديدة وليس يخاف مايكابده منها يتوق الى معرفة ماتم لهما بعد ذلك فنقول

ظل المسافران سائران في ذلك الظلام الحالك لكي يهتديا على طريق يسلكانه ليصلا الى محل قصدهما فذهبت كل آمالهما ادراج الرياح ولم يريا من نتيجة تعبهما الا أضعاف أضعافه . ولكنهما بعد مضي زمن طويل ساعدهما الحظ بأن رأيا نور مصباح على بعيد . فسرا غاية السرور وانشرح صدرهما بذلك وجدا في سيرهما متجهان نحوه لانهما علما أنهما على مقربة من احدى البلاد اتزايد عدد المصابيح مع ارتفاع اصوات الفلاحين بجلبة تشبه اصوات النواعير ولم تمض غير لحظات قصيرة الا وقد صار بينهما وبين تلك البلدة بعض خطوات قليلة . فوقفا ليدبرا امرهما وماذا يعملانه وبأية حيلة يمكنهما ان يجدا بين أولئك الناس ملجأ يلجآن اليه في هذا الظلام الحالك والبرد القارص وتفاوضا في ذلك الامر برهة ثم سارا وقد استقر رأيهما على أن يتخذ زي المصريين وسيلة يدخلان بها البلدة حيث يبيتان فيها الى الصباح . وبالفعل اخرج محبوب تلك الملابس من الشنطة التي معه . ودخلا البلدة بهذا الزي

فلحسن حظهما وجدا اهلها في هرج ومرج وانقلاب شديد يدل على وجود داع لهذا الفعل من فرح او ترح ولكنهما على اي الحالين لا يلتفت اليهما لان الفلاحين منهمكين بأمورهم وقضاء مآربهم

وكان محبوب يحسن العربية (اي لغة العامة) بعكس سيده الذي لا يعرف شيئاً منها مطلقاً

هذا وقد وقع بنظرهما حينما دخلا البلدة على مئات من الفلاحين مجتمعين

كدائرة وفي وسطهم رجل يشنف اسماعهم بانغام جافية يمجها الذوق ويأباها الخاطر لبعدها عن ادنى رقة وأقل طلاوة

فتأكد لهم حينذاك ان الداعي لهذا الهرج هو فرح لا ترح فاضطر الى الجلوس معهم والتجشم لمشاق معيشتهم الخشنه في تلك الليلة . وحينئذ لعن هنري محبوبته التي ألجأته الى ذلك وتكدر غاية الكدر لان مزاجه رقيق ايتأثر من أقل المؤثرات

وما زالا جالسان بل متكبدان ذلك العناء الى ان تفرق الفلاحون الى دورهم ولم يبق الا مغنيهم وأصحاب الحفلة فعلم محبوب أنه ان لم يلاقي لهما مأوى في دور اصحاب الوليمة لا بد من البيات في ذلك الخلاء متوسدين أرضه مع الالتحاف بهوائه البارد . فذهب الى أحدهم وأخبره انهما غريبان يريدان البيات الى الصباح . فأجابه على ذلك وسار معهما الى داره حيث هيأ لهما محل باتا فيه الى الصباح

فاستيقظ محبوب مبكرا وأيقظ سيده ثم سارا توا الى (عزبة) محبوبة هنري مهتديان بارشاد الناس . فلما صارا على مقربة منها رأيا قصر جميل بارز عنها في وسط حديقة لطيفة فعلما بدون ارتياب انه محلها فاتجها في سيرهما نحوه بكل سرعة وهناك تأكد لهما اصابة ظنهما اذ رأيا الخادم الذي كان صحبة سيدته محبوبة هنري في رومه قائماً امام باب البيت فحياه هنري تحية جمعت كل رقة وطلب منه ان يخطر سيدته بوصولهما فذهب حيث مكث مقدار ساعة وهما منتظرانه بفروغ صبر ثم عاد وفي يده ورقة مطوية سلمها لهنري وعاد على عقبه بسرعة شديدة . ففطن محبوب ما وراء ذلك بعكس سيده الذي كان منهمكا بتلاوة الورقة . ولما اتمها ضحك ضحكة تشف عن طارق طرق عليه عند تلاوتها ثم اعطاها

لمحبوب ليقرأها فوجد فيها ما يأتي

لا تؤاخذني يامسيو في ان اقول لك من صميم بي اذهب بسلام الى حيث اتيت قبل ان تذهب مكبلا بالحديد رغماً عن انفك

ولا تظن اني كففت يدي عن اذاك في رومة حباً فيك أو رغبة في جمالك بل منعا للاشاعة والاقاويل

ولا يخطر في فكرك ايضاً انني أعلمتك عن محلي لتأتي الي فيه طمعاً في وصلك والفوز باموالك ان كنت ذا اموال بل تخلصاً من حماقتك وافعالك السيئة .. فاقول لك وكل جوارحي ألسنة تناديك (بان اذهب بسلام . اذهب بسلام)

الامضا

اوت

فذهل محبوب حينما اتى على آخره وعلم انها حيلة نصبت لسيده قد تخلصت بها تلك الشيطانة بل (الحرة الشريفة) من مخالب حيله . ثم التفت الى سيده وخاطبه قائلا

— ماذا ننتظر هلم بنا قبل فوات الوقت لنعود الى العاصمة

— نعم نعود . نعم نعود الى حيث أتينا فائزين بوافر الخيبة والغبن فيا لدهاء النساء لقد يلعبن بعقول الرجال مثل السحرة

ثم انه عاد على عقبه وقد تحقق له ان صفقته غير رابحة فتبعه خادمه . وظلا سائرين كأن قدميهما على لظى الجمر وكلاهما غريق في بحر عميق من الافكار فالسيد جل فكره في محبوبته وما فعلته معه والخادم مشغول بان دنانيرهما أو منبعث لذتهما قد فني اكثرها وانهما صبحا على شفا الفقر وانهما عما قليل يستفظان في وهدته العميقة

هذا وهما يجدان السير نحو المحطة بالطبع . فقطعا المسافة في وقت عليهما غير قصير وهناك وجدا قطار متوجه الى مصر ولكنه على وشك القيام فاسرعا في قطع تذكرتين لهما وركبا القطار فسار يقطع المراحل ويطوي الفيافي بسرعته الغريبة متجهاً نحو العاصمة

كل هذا وهما لم يفوها ببنت شفة كأن على رأسهما الطير ليس لهما شاغل .. يحول بينهما وبين أفكارهما سوى انتظار الوصول الى المحروسة بفارغ الصبر حتى وصلا . فذهبا تواً الى الفندق وجلسا في غرفتهما فافتتح محبوب الكلام بقوله

— ماذا يجدي ياسيدي هذا الحزن فضلا عن وننا في وقت يجب علينا فيه ان نتلافى أمر معيشتنا

— مامعنى هذا الكلام يا اخي أفلا يوجد مما اتينا به من رومة ما يقوم بمعيشتنا

— كلا ياسيدي لم يبق منه الا اليسير اي لا يكفينا الا يومين اذا استعملنا الاقتصاد فاستفحل الاسى والاسف في قلب هنري لما رأى تلك المصائب تترادف عليه من كل وجهة فقد أتي من رومه وصرف مصاريف باهظه لنوال غرضه فصارت بغير جدوى . وقد هجم الفراغ على دراهمه واذا فرغت لا يجد ما يأكله فضلا عما يتلذذ به . فزادت به البلوى واحاطت به الاكدار وكذلك خادمه شاركه في احواله من البكاء والانتحاب

واستمرا على هذه الحالة مدة يومين وبعدها تحقق لهما ماظناه اذ قد أضحت اموالهما في خبر كان . وبعد ان كانا يريا صندوقهما مملوء بالدنانير الكثيره أصبح قعره مكشوف ليس فوقه الا الهواء

فهطلت دموعها مدرارا وحزنا حزنا شديدا ولكنهما عقدا مجالساً لينظرا فيه في امرهما ويخطا لهما خطة يسيرا عليها فقر رأيهما على ان يبيعا مالديهما من أثاث ورياش وكذلك ساعتيهما ويذهبان بما ينتج من اثمانها الى وطنيهما فان وجدا مايقوم بمعيشتهما فيه يقيمان به الى أن يصادفهما أجلهما وان لم يجدا فأصعب شيء يفاجئهما الموت وهو جل مايتمنياه في ذلك الوقت وبالفعل باعا كل ذلك فنتج منه (ماية جنيه) فذهبا بعدئذ الى عاصمة فرنسا أو وطنهما باريس وأقاما بها مدة كبيرة ولكنهما قد نبذا الطيش والاسراف خلفهما وعاشا شريفين

هذا وقد ذهب هنري الى بيت والدته فلم يجدها هنالك ووجد البيت مملوء بسكان لايعرفهم . فشق عليه ذلك ولعن الزمن الذي فعل بها ذلك وأنب نفسه ووبخها على تلك الفعلة التي خسر بها امواله وشرفه ورضاء أمه واستوجب السخط من الله

فسأل سكان البيت عن امه وما فعل الزمن بها فأخبروه أنها باعت البيت لهم ولم يعلمون خبرها بعد ذلك . فصعب عليه وكبر لديه واحتار في امره ولكنه أخذ يتجسس ويسأل عنها حتى وقف على خبرها وعلم انها منذ فراره مع اهل بلانش وانها رحلت معهم الى ايطاليا

فودع خادمه وداعا لايراه بعده وذهب الى رومه حيث أقام باحدى الفنادق وجعل يبحث ويفتش عليها حتى علم أنها لم تزل مع اهل بلانش مقيمة في بيت الجنرال عم بلانش الآنف ذكره

وكان السبب في رحيلهم من باريس الى ايطاليا هو ان الجنرال لما ذهبت

اليه بلانش واقامت عنده ارسل اليهم فحضر وأصلح بين بلانش وبينهم وطيب قلب أم هنري عليه واوعدها أنه لا بد أن يقف على خبره

﴿ الفصل التاسع ﴾

(تتمة)

في يوم هو اول اعتدال حظ هنري وفاتحة سعده كان خرج بقصد التنزه في منتزهات رومه الجميلة ممتطياً عربة لطيفة فسبح في بحار افكاره متأملا في جمال الطبيعة وما اكتسته الارض من الثياب السندسية التي تختلس الالباب وتجذب الابصار وفيما هو غريق في تلك البحار واذا بشيء استوقف نظره واضطرب له قلبه ألا وهو عربة تحمل حبيبته القديمة وكذلك امها وامه . وهي سائرة الهوينا . فامر سائق عربته بايقافها ثم اعطاه اجرته ونزل منها وسار على قدميه مشيعاً العربة بابصاره متبعاً اثرها حتى وصلت الى البيت . فعاد هو الى الفندق حيث قضى شطراً من ليلته في تسطير مكتوب ولما أتمه وضعه في جيبه والشطر الآخر قضاه بين نحيب وبكاء وتقلب على فراشه كأنه على جمر الغضا

ولما اصبح الصباح وتضاحى النهار ذهب الى البيت الذي عرفه بالامس وأخرج الرسالة من جيبه وأعطاها لاحد الخدم وأمره بتوصيلها الى بلانش فذهب الخادم وعاد هو الى الفندق فقضي نهاره الى ساعة الاصيل الجميلة وقام توا وخرج من الفندق ثم استأجر عربة وسار بها الى كنيسة عظيمة قد حازت كل الزخرفة والجمال

فدخلها بسرعة شديدة وقضى فرائضه الدينية وسار الى جهة مخصوصة

فيها وهناك وجد قرينته بلانش في انتظاره فعند ما وقع نظره عليها فتح ذراعيه واحتضنها واخذ يقبلها بحرقة وتشوق مدة طويلة . ثم انهما جلسا بعد ذلك وجعلا يفصحان عما لقياه من التشوق الى رؤية بعضهما مدة غيابهما وتعاهدا وحلفا ايمانا صادقة على ان لا يخونان بعضهما ثانيا وقد سألها هنري الصفح عن زلاته وهفواته التي فعلها معها فصفحت عنه

وكان السبب في اتيان بلانش الى الكنيسة هو الرسالة التي ارسلها لها مع الخادم وهذه صورتها

(حبيبتي وقرينتي العزيزه بلانش)

أتقدم بكل خضوع وأمثل بين يدي كرمك السامي راجياً الصفح عما جنته يدي وما فعلته معك من الزلات الكثيرة وأملي فيك وطيد بان تجيبيني على ذلك فاني مقر بآثامي وكرمك أوضح من ان يذكر

واذا صدق املي فيك وصادفت توسلاتي لديك قبولا فانتظريني في كنيسة .. عند حلول الساعة الرابعة من مساء هذا اليوم لكي نتعاهد امام الهنا على الصدق في المعيشة والمعاشرة الامضا

قرينك المخلص

هنري

فلطيبة قلبها وسلامة نيتها وصفاء سريرتها تناست كل ما فعله هنري معها وذهبت الى المكان المعين حيث تعاهدا وتواثقا كما ذكرنا . وبعد ذلك استشارها هنري فيما يفعله من الوسائل التي تستوجب رضاء اهلها وأمه عنها

فاشارت عليه بان يقابل عمها ببيته في المساء و يتخضع له و يسأله العفو والصفح فانه يعفو عنه لحلمه وشفقته . فاستصوب رأيها ثم قاما وخرجا من

الكنيسة فذهبت بلانش الى محلها وذهب هو الى الفندق فتناول بعض الطعام . ولما حل المساء ذهب الى بيت الجنرال لمقابلته والتماس العفو منه

ولما قابل الجنرال وأدى ما يجب في ذالك الوقت اكب على قدميه يقبلها ويخاطبه بكلمات تلين الصخر وحينذاك دخلت بلانش وشاركت قرينها في فعله وهطلت دموعهما مثل المطر فرق لهما قلب الجنرال وعلم ان القسوة لا تجدي نفعاً في مثل هذه الحالة بل لا ينتج منها الا الاشاعة وأقاويل الناس

فطيب خاطرهما وأعلمها ان قلبه صفا لهما . فتهلل وجههما واشرق بالبشر وقام هنري الى والدته فقبل قدميها وكذلك ام بلانش

ثم بعد ذلك أقاما في بيت الجنرال متفيئين ظل كرمه وفضله وقد اصبح هنري من رجال الجيش الطلياني بسعي الجنرال فنال جاهاً واسعاً وشرفاً جليلا لشجاعته واقدامه

وعاشوا في رفاه وبنين وقد نبذ الطيش خلفه نبذ النواة اذ قد علم انه لا يعقبه الا الفقر والاقلال

تم طبعها بالمطبعة الوحيدة المصرية الكائن مركزها بدرب الجماميز لصاحبها سيد احمد افندي فهمي لملتزمها منصور افندي عبد المتعال الكتبي بشارع محمد علي في اواخر شهر ربيع الاول سنة ١٣٣١ من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وازكي التحية

تطلب الروايات الآتية من المكتبة المصرية لصاحبها منصور عبد المتعال الكتبي بشارع محمد علي بمصر

قرش صاغ

١٠ فرسان الليل

٤ الحب والحرب

٨ ملك الجبال او لصوص اليونان

٧ الملك فداء الغرام او الرجل السياسي

٥ ملكة النور

٥ العاشق المتنكر

٥ الفتاة المعذبة

٤ الاختفاء الغريب

٤ شهداء البورصه

٥ الباريسية الحسناء

٤ القصاصي العادل

٢٥ نهضة الاسد اربعة اجزاء

٥ اسرار القصور

٥ عذاء الجند

٥ الاخ الغادر

٦ همم الرجال

ويوجد بها ايضاً كثير من الكتب الادبية والتاريخية